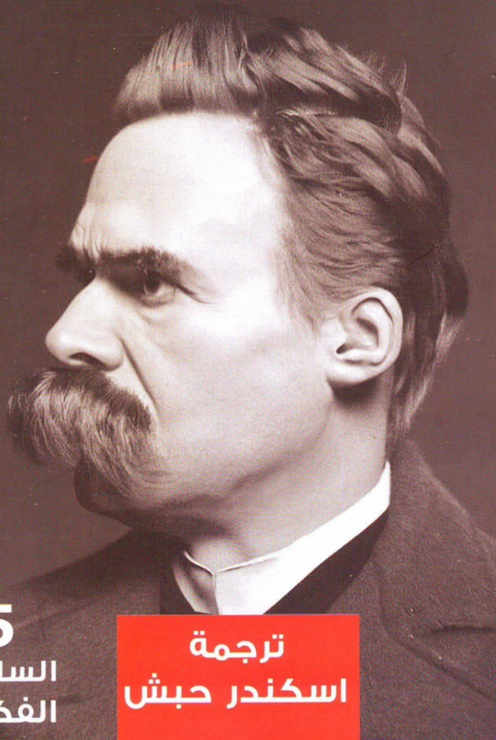
ألفريد فوييه

ديانة نيتشه
وأفكاره الاجتماعية



ترجمة
اسكندر حبش

5
السلسلة الفكرية

السلسلة الفكرية
(5)

ألفريد فوييه

ديانة نيتشه وأفكاره الاجتماعية

ترجمة وتقديم

إسكندر حبش

السلسلة الفكرية (5)

اسم الكتاب: **ديانة نيتشه وأفكاره الاجتماعية**

ترجمة وتقديم: **إسكندر حبش**

عدد الصفحات: 112

القياس: 22.5×15

الطبعة الأولى: 2024م - 1445هـ

سورية. دمشق. ص.ب: 2291

هاتف: +963113444369

+963930700443

البريد الالكتروني: newdalmoun@gmail.com

الموقع الإلكتروني: www.newdalmoun.com

تصميم الغلاف: م. مهند المهنا

دار دلمون الجديدة

للطباعة والنشر والتوزيع

تمهيد

ولد ألفريد فوييه، في 18 تشرين الثاني/ أكتوبر 1838 في لابويز (مين ولوار) وتوفي في 16 حزيران/ يوليو 1912 في مدينة ليون. كان والده جوليان فوييه، مديراً لمحجر فيوجيه للأردواز.

تلقى علومه في مدينة لافال. عمل في البداية مدرساً، وقام بمفرده بالتحضير للتقدم إلى شهادة التبريز (الأغريغاسيون) في الفلسفة. حصل على المركز الأول في العام 1864، ليُدَرِّس الفلسفة على التوالي في المدارس الثانوية في دواي ومونبلييه وبوردو. حازت دراساته عن أفلاطون (1867) وسقراط (1868) على جائزة من أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية. تم تعيينه محاضراً في مدرسة الأساتذة العليا العام 1872، وحصل على لقب دكتور في الفلسفة نظراً لدراساته عن أفلاطون، التي جمعها في كتاب بعدة أجزاء، لتعتبر على أنها أطروحة جامعية.

العمل المضني الذي قام به على مدى السنوات الثلاث التالية لتأليف كتابه "تاريخ الفلسفة" (1875) و"الفكرة الحديثة للقانون" (1878) ألحق ضرراً كبيراً بصحته، وخاصةً بصره، ما أجبره على الاستقالة من منصبه كمدرس. وبعد أن تحرر من التزاماته المهنية، واصل عمله في الفلسفة، محاولاً التوفيق بين المثالية الميتافيزيقية ووجهات النظر الميكانيكية والطبيعية من خلال الانتقائية التأملية. تمت ترجمة تاريخ الفلسفة بالكامل في اليابان بين عامي 1885 و1886 على يد ناكاي تشومين، وبذلك أصبح أول كتاب حول تاريخ الفلسفة يُنشر في ذاك البلد.

بعد علاقة غرامية طويلة، تزوج من أوغسطين توليري، وهي كاتبة كانت تنشر باسم مستعار هو ج. برونو، وقد ألفت أيضاً كتاب القراءة للتعليم الابتدائي. ونظراً لتأثيره على المحيط العائلي الجديد، أصبح ابن أوغسطين من زواجها الأول، جان ماري غويو (1854-1888)، فيلسوفاً أيضاً.

على مدار ثلاث كتب بحثية: "تطور قوى الأفكار" (1890)، و"سيكولوجية قوى الأفكار" (1893)، و"أخلاق قوى الأفكار" (1907)، طور فوييه مفهوم "قوى الأفكار"، وهذا يعني أن العقل هو السبب الفعال لتحقيق ميل الأفكار من خلال العمل الواعي. إذ إن الامتدادات الأخلاقية والاجتماعية لهذه النظرية، ولا سيما من خلال محاولة حل تناقض الحرية، تتجاوز الجوانب الجسدية والنفسية وحدها.

يقدم مشروع فوييه الفلسفي نفسه في البداية على أنه محاولة للتوفيق بين الوضعية والمثالية. ومن الوضعية، فإنه يحتفظ بمفهوم العلم باعتباره وسيلة متميزة للمعرفة. لكن المظاهر الروحية للإنسان لا يمكن الوصول إليها عن طريق التجريد العلمي، يأخذ فوييه من المثالية الموقف الذي بموجبه توجد معرفة فلسفية محددة، قبلية واستبطانية، والتي تشكل الطريقة الوحيدة للوصول إلى ظواهر الروح، المعرفة. والذي يكشف لنا بشكل مباشر جزءاً من حقيقة العالم.

بالنسبة إلى فوييه، يتم تعريف الوعي بمجموعة من "قوى الأفكار". تؤكد هذه الفكرة على الطبيعة النشطة للعقل، الذي لا يمكن اختزاله في مظاهره البيولوجية، ولا يمكن تصوره بشكل منفصل عن بيئته المادية. إن رغبته في تجاوز علم الأحياء الوضعي لا

تقود فوييه إلى الالتزام الحقيقي بالمثالية: فالفكرة الرئيسية بالنسبة له ليست مبدأ متعالياً، ولا حتى "متعال" (بالمعنى الكانطي)، ولكنها ظاهرة طبيعية منها نفسية. الخصائص الفيزيائية ليست سوى جوانب (الداخلية والخارجية). الفكرة الرئيسية، كمبدأ نفسي، هي فكرة داخلية للموضوع، لكن مظاهرها الخارجية يمكن أن تكون موضوع فحص علمي. فدراستها من الناحية النفسية تعطينا نظرة ثاقبة على الطبيعة الأعمق للظواهر الخارجية.

لذا يمكن لنا القول إن ألفريد جول إميل فوييه هو فيلسوف في المقام الأول، ولكنه أيضاً أحد أوائل علماء الاجتماع الفرنسيين. في الفلسفة طور نظاماً فلسفياً يعتمد على الحالات النفسية التي أطلق عليها اسم "قوى الأفكار"، وهو المفهوم الذي حاول من خلاله التوفيق بين المثالية الميتافيزيقية والوضعية العلمية في ذلك الوقت كما أسلفنا. أما في علم الاجتماع، يرتكز عمل فوييه على مشكلة النخب، ومع ذلك يبقى مفكراً نخبوياً لليبرالية البرجوازية في العصر الجميل: بالنسبة له، هذا هو الرفض المتزامن لمواقف المساواة والأطروحات الأرستقراطية، مع الرغبة في التوفيق بين كليهما من قبل المؤسسة. الجدارة في المجال الاجتماعي، نوع من النخبوية الجمهورية "الطبيعة بأكملها تتقدم من خلال تطور التفوق ومن خلال التقدم للأمام نحو الأفضل"[1].

يتضمن هذا الكتاب- الذي نترجمه إلى العربية- دراستين كان الفيلسوف الفرنسي فوييه قد كتبهما عن نيتشه، وهو يعتبر من أوائل النتشويين في فرنسا، الأول حول ديانة نتيشه وقد نشره في "مجلة

[1]- من "التعليم والاختيار" ألفريد فوييه، في "مجلة العالمين"، المجلد التاسع عشر، 1890، ص 579

العالمين"، العدد الأول، الإصدار الخامس، العام 1901، أما الثاني فحول أفكار الفيلسوف الألماني الاجتماعية وقد نشره فوييه أيضاً في المجلة عينها، الجزء التاسع من الإصدار الخامس، العام 1902، وفيهما يقدم تأويلاً خاصاً للفيلسوف الألماني، أثار يومها الكثير من الجدل.

ربما يجد البعض أن هذا التأويل قد تخطاه الزمن، (ليس رأيي في أي حال)، لكنه بالتأكيد يقع في قلب تاريخ الفلسفة والأفكار، وربما لذلك يُعاد اكتشاف فوييه حالياً في فرنسا، بعد أن طواه النسيان لفترة طويلة، إذ تعاد طباعة أعماله وتقام المؤتمرات حول فلسفته.

ا

ديانة نيتشه

ذاك الذي كان يأمل أن يكون أكثر الناس كفراً، ذاك الذي ذهب به الأمر ليقول: "لقد قتلت الله"، أليس هو نفسه رئيس كهنة دين وعابد لألوهة جديدة؟ فلسفته هي الشعر والأساطير. وبهذه الطريقة يشبه كل الأساطير التي ولدتها البشرية. فلسفته هي إيمان بلا أدلة، وسلسلة لا نهاية لها من الأمثال والأقوال والنبوءات، وبالتالي فهي أيضاً دين. لقد اعتقد هذا المعادي للمسيح في القرن المنصرم أنه مسيح جديد، متفوق على الآخر، ومن خلال التعبير عن هذا الإيمان بنفسه، أغرق نفسه في الظلّ الفكري العظيم.

بعد البحث في أسباب نجاح نيتشه، سنسأل أنفسنا ما هي قيمة العقائد الرئيسية لدينه: عبادة السلطة، وتوقع مجيء الرجل الخارق، والعودة الأبدية لنفس المصائر، والعبادة الأبولونية والديونيسيوسية للطبيعة.

I

إن نجاح نيتشه، الذي كان بمثابة فضيحة حقيقية للعديد من الفلاسفة، له أسباب، بعضها سطحي، والبعض الآخر عميق. كانت الأقوال المأثورة (الأفوريسمات) مناسبة لجمهور لا وقت لديه ولا الوسائل للتعمق في أي شيء والذي يثق عن طيب خاطر في الأوراق المبهمة، خاصة إذا كانت شعرية جداً بحيث تبدو ملهمة. إن مجرد غياب المنطق والبرهان المنتظم يضفي على الدوغمائية جواً من السلطة يُفرض على جمهور نصف المتعلمين والأدباء والشعراء والموسيقيين والهواة من جميع الأنواع. من الواضح أن المفارقات الأصلية تمنح من يقبلها الوهم المغري بالأصالة. ومع ذلك، هناك أيضاً أسباب أعمق لهذا النجاح الذي حققته عقيدة فردية وأرستقراطية بقوة، والتي تقدم نفسها على أنها إسقاط لكل دين وكل أخلاق. وبصرف النظر عن حقيقة أن زرادشت، وهو تحفة من روائع الأدب الألماني الحديث، وربما من كل النثر الألماني، هو قصيدة رائعة تُسعد الأذن بشكل مستقل عن معنى المذاهب، فهي أيضاً رد فعل مشروع جزئياً ضد الأخلاق العاطفية المفرطة. أصبح من المألوف من قبل أولئك الذين يبشرون "بدين المعاناة الإنسانية". إلى جانب تجاوزات العاطفة الغامضة، يحارب نيتشه أيضاً تجاوزات النزعة الفكرية. والمثقفون الذين توجه إليهم ملامح هجائه نوعان. يأتي أولاً العلماء الذين يعتقدون أن العلوم الوضعية يمكن أن تكفي قلب الإنسان؛ ثم هناك الفلاسفة الذين يعتقدون أن العقلاني هو مقياس الواقع، وأن العالم في حدّ ذاته هو نتاج العقل، وهو العمل المُدرَك لبعض الذكاء الجوهري أو المتعالي. وبدلاً من أن تكون فلسفة القلب

أو فلسفة العقل، فإن مذهب نيتشه، مثل مذهب شوبنهاور، هو فلسفة الإرادة. إن أولوية الرغبة على الشعور والتفكير هي عقيدتها الأساسية.

ليس هذا كل شيء. فالإرادة نفسها يمكن أن تؤخذ بالمعنى الفردي أو بالمعنى الجماعي. وهذا الأخير عزيز على الاشتراكيين والديمقراطيين، الذين يخضعون الفرد للمجتمع. إن نيتشه هو أحد الذين ثاروا على "غريزة القطيع" والذين أعلنوا، على مثال عصر النهضة، سيادة الفرد في نظام الطبيعة.

لقد انقسم عصرنا بأكمله بين الاشتراكية والفردية، وقد انتهى الأمر بكليهما إلى اتخاذ الشكل الإنساني. ما كانت عليه الرومانسية، في العمق، إن لم تكن عبادة الشخصية التي تتطور من دون قاعدة أخرى غير نفسها، من دون قانون آخر سوى قوتها الخاصة، سواء كانت هذه القوة عاطفة مطلقة أو إرادة بلا كابح؟ ومن هنا جاءت تلك الفردية التي أدت في النهاية إلى المذاهب الأناركية. وقد كانت هناك، في الوقت عينه، رومانسية اشتراكية وديمقراطية، مع بيير لورو (Pierre Leroux)، وفيكتور هوغو، وجورج ساند، وميشليه؛ لقد كان تعميم أفكار السعادة والحرية العالمية والمساواة والأخوة على المجتمع ككل هو ما ألهم الثورة الفرنسية. لقد رأى نيتشه في ذلك انحرافاً وانحطاطاً؛ لذا تمسك بالفردية البدائية ليعلي الذات على المجتمع كله. ففي مواجهة الديمقراطية التي تهدد بتسوية كل شيء، وضع مقابلها أرستقراطية جديدة، رأى فيها الخلاص الوحيد الممكن؛ بالنسبة إلى الرجل العادي فد وضع قبالته الرجل الخارق (سوبرمان).

يتمتع نيتشه بصفات عقلية وقلبية رائعة؛ فيه نبل الفكر، وسمو المشاعر، والشغف والحماسة، والإخلاص الفكري والاستقامة. شعره غنائي قوي. فلسفته فيها شيء خلاب يغوي الخيال؛ إنها سلسلة لوحات ومناظر طبيعية ورؤى وأحلام، رحلة رومانسية إلى بلد مسحور، حيث المشاهد الرهيبة تتبع المشاهد المبهجة، حيث تتريع المحاكاة الهزلية في وسط خلاب. نيتشه متعاطف مع الأطراف العظيمة. ما هو مثير للشفقة فيه غطرسة الفكر. علاوة على ذلك، فإن أي مذهب للأرستقراطية الحصرية هو مذهب فخر، أوليس كل كبرياء هو بداية الجنون؟ يحمل الشعور الأرستقراطي لدى نيتشه، شيئاً مريضاً. حتى أنه يعتقد بأنه هو نفسه من عرق متفوق، من عرق سلافي، كما لو كان السلافيون متفوقين، وكما لو كان هو نفسه سلافياً! وطوال حياته، كان هذا الألماني الأصيل يفتخر بأنه ليس ألمانياً. إنه ابن قس ريفي بروسي، ويتخيل أنه ينحدر من عائلة بولندية نبيلة عريقة تدعى نيتشكي (Nietzky)، بينما (تقول أخته نفسها) ليس لديه قطرة دم بولندية في عروقه؛ منذ ذلك الحين، أصبحت سلافيته الخيالية فكرة ثابتة وفكرة- قوة: انتهى به الأمر إلى التفكير والتصرف تحت تأثير هذه الفكرة. قال، إن النبيل البولندي له الحق في إبطال مداولات جمعية عامة بأكملها باستخدام حق النقض (الفيتو) الوحيد. وهو أيضاً، سيستخدم حق النقض ضد كل ما قرره المجتمع البشري العظيم. "كان كوبرنيكوس بولندياً" وقد غيّر كوبرنيكوس نظام العالم؛ سوف يسقط نيتشه نظام الأفكار والقيم؛ سيجعل البشرية تدور حول ما احتقرته وكرهه. شوبان البولندي (الذي كان أيضاً فرنسياً بقدر ما كان بولندياً، نظراً لأن والده كان فرنسياً) "أخرج الموسيقى من التأثيرات الأكاديمية"؛ وقد

خلص نيتشه الفلسفة من التأثيرات الألمانية، لقد مدح نفسه لهذا، آمن بذلك؛ وقام بتطوير فلسفة شوبنهاور في اتجاه جديد.

لنوجه "الرغبة في الحياة صوب معنى متفائل". قال نعم لكل مآسي "الصيرورة" التي استقبلها شوبنهاور بالرفض. إذا طرح فكرة ما، فإنه غالباً ما يعتقد أن أحداً لم يلمحها من قبله؛ كل قول من أقواله المأثورة يشبه صوت الـ "فيات لوكس"[2] (Fiat lux) (ليكن نور) الذي من شأنه أن يرسم عالماً من العدم. في جميع أعماله، يتخذ موقف فوست الرومانسي الثائر ضد كل القوانين والأخلاقيات والحياة الاجتماعية. متناسياً أن عدم التواصل هو العلامة الأوضح على الميزة الإضافية لهذا الضمور الذي يريد أن يتحرك ضده. تعزل أناه، يعارض الآخر، وينتهي به الأمر بأن يرى نفسه يتضخم حتى يمتص العالم. لنظرياته الأكثر تجريداً تلك اللهجة الغنائية التي تعطي صدى الذات الأبدي للشاعر. يزعم مازحاً أنه في كل الفلسفة، تأتي لحظة تظهر فيها القناعة الشخصية للفيلسوف على الساحة، حيث يتحدث بلغة لغز قديم:

Adventavit asinus
Pulcher et fortissimus.

جاء حمار
وسيم وقوي.

---

[2]- "فيات لوكس"، عبارة لاتينية موجودة في بداية سفر التكوين. هي كلمة الله الأولى، الأمر الذي أعطاه عندما خلق النور في اليوم الأول من خلق العالم، [وقال الله ليكن نور فكان نور]. الجملة الكاملة هي Fiat lux وfacta est lux . هذه العبارة، التي لاقت نجاحًا كبيرًا منذ القرن الثامن عشر، يمكن أن تستحضر اختراعًا أو اكتشافًا.

نيتشه نفسه هو أفضل مثال، مع هذا الفارق المتمثل في أن قناعته الخاصة، التي ليس لها في بعض الأحيان عنوان آخر سوى التعبير عن الذات، موجودة دائماً على المسرح. «يوجد في الفيلسوف، كما يقول نيتشه مرة أخرى، ما لا يوجد أبداً في الفلسفة: أعني سبب العديد من الفلسفات: الرجل العظيم". في كل مكان، وفي كل سطر، يتألق طموحه في أن يكون هذا الرجل العظيم. ومثل معظم الفلاسفة الألمان، من هيجل إلى شوبنهاور، يعتقد عن طيب خاطر أنه وحده القادر على فهم نفسه. "فقط بعد غد سيكون ملكاً لي. البعض يولد بعد وفاته. أنا أعرف جيداً الشروط التي يجب تحقيقها لكي أفهمني. شجاعة الفاكهة المحرمة، قدر المتاهة. تجربة سبع عزلات. آذان جديدة لموسيقى جديدة. عيون جديدة للأشياء البعيدة. وعي جديد للحقائق التي ظلت بكماء حتى الآن... هؤلاء وحدهم هم قرائي، قرائي الحقيقيون، قرائي المقدرون: ما الذي يهم في البقية؟ الباقي هو الإنسانية فقط. يجب على المرء أن يتفوق على الإنسانية في القوة والعلا والاحتقار[٣]."

في عالم القيم، بحسب نيتشه، يسود التزييف؛ حان الوقت لتغيير كل من المواد والكفاءة معاً. لقد أخطأت البشرية جمعاء حتى الآن فيما يتعلق بكل قيم الحياة، لكن الحياة الحقيقية التي تستحق العيش، صممها نيتشه أخيراً. قال: "آلاف القرون القادمة لن تُقسم إلا بي". ويضيف أن العصور تمّ حسابها بشكل خاطئ بدءاً من "اليوم القاتل" الذي كان اليوم الأول للمسيحية. "لماذا لا نقيسها من يومها الأخير؟ بدءاً من اليوم! تحويل جميع القيم! هكذا يتحدث مؤسس العصر النيتشوي.

---

[3]- من مقدمة المسيح الدجال.

حين نقرأ نيتشه، نشعر بالتمزق بين شعورين: الإعجاب والشفقة (على الرغم من أنه يرفض هذه الكلمة الأخيرة باعتبارها إهانة)، لأنه يوجد فيه، بين العديد من الأفكار النبيلة، شيء غير صحي، وكما يحب أن يقول، شيء من "الانحراف"، الذي يعتقل ويحبط أحياناً أكثر ثورات الفكر أو القلب إثارة للإعجاب. "قضية فاغنر؛ مشكلة موسيقية"، هذا هو عنوان أحد كتبه؛ ألا يمكننا أيضاً أن نكتب: "قضية نيتشه؛ مشكلة مرضية؟"

في ألمانيا، تم إنتاج أدب كامل حول اسم نيتشه؛ وسيفعل العلماء والنقاد له ما فعلوه لـ كنط؛ نيتشه لديه «أرشيفاته» في فايمار، ونيتشه لديه «متحفه». إنه نوع من التنظيم العلمي في خدمة المجد الوطني. بينما يضع الألماني كل فنه، وكل علومه، وحتى كل خبرته في تنمية وتعظيم كل شخصية ظهرت عبر نهر الراين؛ وبينما يقوم، بتقوى واسعة المعرفة، بتكديس التعليقات على التعليقات لجعل المفكر الألماني مركز العالم، ها نحن الفرنسيون لا نستعظم أمجادنا إلا قليلاً؟ ألا ننسى بسهولة أولئك الذين كانوا أسيادنا، سواء شوبنهاور أو نيتشه؟ والأخير، على وجه الخصوص، كان أسلافه ليس فقط لاروشفوكو وهلفيتيوس، ولكن أيضاً برودون ورينان وفلوبير وتين. لقد تأثر أيضاً بـ جوبينو (Gobineau)، الذي أظهر له (مثل فاغنر) حماساً حقيقياً. دعم جوبينو، الذي تأسس مجتمع على شرفه- في ألمانيا- عدم المساواة الضرورية بين الأجناس البشرية، وتفوق العرق الأوروبي وخاصة العرق الجرماني الأشقر، وشرعية انتصار المتفوقين على المرؤوسين، والاختيار الأرستقراطي للجنس البشري لمصلحة الجنسيات المكونة من أفضل الأجناس. التقت أفكار

غوبينو مع أفكار نيتشه حول أرستقراطية الأجناس وإمكانية تطوير عرق متفوق، يستحق أن يُطلق عليه لقب فوق البشر.

لا يزال يتعين على نيتشه، في بعض النقاط، أن يسبق في فرنسا فيلسوفاً- شاعراً تجاوز معلقو نيتشه اسمه في صمت، والذي تجبر أبسط عدالة الفرنسيين على تذكر ألقابه. في نفس زمن نيتشه، كان في نيس ومنتون مفكر شاب، شاعر مثله، فيلسوف مثله، ومصاب جسده مثله بالمرض، ولكن بروح سليمة بقدر ما هي ثابتة، ومنذورة أيضاً إلى حياة المعاناة والموت المبكر أكثر من موت نيتشه. نفس الفكرة الأساسية للحياة المكثفة والممتدة هي التي حركت هذين العقلين العظيمين والنبيلين، وكلاهما خالي من التحيز، وحتى من التحيز الأخلاقي. صدر كتاب غويو "مخطط لأخلاق من دون التزام أو عقوبة" في العام 1885؛ كتب نيتشه "ما وراء الخير والشر" في شتاء 1885- 1886 في نيس وظهر في 1886. تمّت كتابة "نسب الأخلاق" (جينالوجيا الأخلاق) العام 1887. كما أن كتاب "شفق الأصنام" و"المسيح الدجال" يعود تاريخهما إلى العام 1888. وكان كتاب "لا دينية المستقبل" لـ غويو قد ظهر قبل عام من ذلك وكان له تأثير كبير. لا شك أن الأفكار الميتافيزيقية والجمالية الرئيسية لـ نيتشه كانت ثابتة بالفعل قبل عدد معين من السنوات، لكنني لا أعرف ما إذا كانت أفكاره الأخلاقية قد وصلت بالفعل إلى تعبيرها النهائي؛ في أية حال، لم يكن لديها بعد شخصيتها "الفريدة" و"الجديدة" تماماً التي أعطاها إياها. لقد قرأ نيتشه وتأمل في كتابات غويو. في نسخته من "مخطط لأخلاق من دون التزام أو عقوبة"، المليئة بملاحظات هامشية والتي سننشرها في أحد الأيام، أكد نيتشه بقوة على المقطع التالي: "دعونا نفترض، كما يقول غويو،

فناناً يشعر بالعبقرية في داخله، وقد وجد نفسه محكوماً عليه طوال حياته بالعمل اليدوي؛ هذا الشعور بالوجود الضائع، بالمهمة التي لم يتم إنجازها، بالمثال غير المتحقق سوف يطارده، سوف يطارد حساسيته بنفس الطريقة التي يطارد بها الوعي الفشل الأخلاقي".

وأضاف نيتشه في الهامش: «كان ذلك وجودي في بازل[4]». تدريس فقه اللغة، عندما يكون رأس المرء مسكوناً بجميع مشاكل الحياة والعالم الكبرى، أليس هذا في الواقع سقوطاً؟ في كتابه الجميل عن نيتشه، رأى السيد ليشتبرغر (Lichtenberger) أنه من غير الضروري أن نتذكر أوجه التشابه بين أفكار نيتشه الأكثر معقولية والأفكار المعروفة لغويو: فقد بدت له أوجه التشابه هذه واضحة بذاتها. السيد جول غوتييه (Jules de Gaultier)، الذي كتب لمجلة ميركور دو فرانس (Mercure de France) دراسة طويلة بعنوان من كنط إلى نيتشه، لم يذكر حتى اسم غويو. في فرنسا، هل ينبغي أن تأتي كل الأزياء النادرة عبر نهر الراين، أو عبر المانش، أو من الدول الاسكندنافية؟ صنع في ألمانيا، صنع في إنجلترا، هل هذه هي العلامات التجارية الجيدة الوحيدة؟ صحيح أن أجرأ المفكرين الفرنسيين يحتفظون، وفقاً للتقاليد الكلاسيكية، بالعقل وحتى بالفطرة السليمة؛ أما المفكرون الجرمانيون فيدفعون الإفراط إلى حد الهذيان: وبهذه الطريقة يجذبون مزيداً من الاهتمام، ويثير حماسهم لأغرب الأفكار فضولاً مصنوعاً من الدهشة.

لحسن الحظ، أن نيتشه نفسه قال: "كما أن هناك دائماً قليل من الجنون في الحب، كذلك يوجد دائماً قليل من العقل في الجنون".

4- انظر Lichtenberger, Introduction aux *Aphorismes et Fragmens choisis de Nietzsche*, p. XIII ; Paris, Alcan, 1899.

يضـيف نيتشــه أيضــاً: "إن أسمــى وجهـات نظرنـا يجـب أن تبـدو بالضـرورة جنونـاً، وأحيانـاً جـرائم، عنـدما تصـل، بطريقـة غـير مشـروعة، إلى آذان أولئـك الـذين ليسـوا مسـتعدين أو مقـدرين لها".

عندما لا ندخل في فكرة عظيمة، فإن المنظور الخارجي يجعلنا نـرى الأشـياء "مـن الأسـفل إلى الأعلـى"؛ وعلـى العكـس مـن ذلـك، عنـدما يحـدد المـرء نفسـه مـن الـداخل بهـذا الفكـر، فإنـه يـرى الأشـياء في الاتجاه "من الأعلـى إلى الأسفل". فلنتبـع إذن نصـيحة نيتشـه نفسـه، ولنجتهد في رؤيـة مذهبـه مـن الأعلـى. ربمـا سـندرك في النهايـة أنـه مهما بدت عقيدة نيتشه هذه سـامية، إلا أنهـا تحتـاج، مثل كل شـيء في نظره، إلى "التغلب عليها"، إلى "تجاوزهـا"- "حقـاً أنصـحك، ابتعـد عني ودافع عن نفسك من زرادشت! ... ربما خدعك... أنت تكرّمني؛ ولكن ماذا لو انهار تبجيلك يوماً ما؟ احذر من أن يقتلك التمثال! لم تكونوا قد بحثتم عن أنفسكم بعد؛ ثم وجدتموني... والآن آمـرك أن تفقدني وتجد نفسك!"

II

يقوم دين نيتشه كله على عبادة إله يسميه القوة. فبدلاً من إرادة الحياة التي وضعها شوبنهاور في قلب الوجود، استبدلها بـ إرادة السيطرة. ونجد، في فكرة القوة المنتشرة هذه، الفكرة الرومانسية القديمة التي تغذّى عليها جميع الأدباء من شليغل إلى فيكتور هوغو، وكل الفلاسفة من فيشته وشيلنغ وهيجل إلى شوبنهاور. القوى التي تنشر نفسها من دون أي هدف آخر غير نفسها أو من أجل الأهداف التي ترغب في طرحها، هنا، مرة أخرى، هي الفكرة الأساسية للرومانسية، التي تتعارض من خلالها مع الفكر الكلاسيكي، ومفاهيم النظام والقانون، الانسجام والوضوح، وبكلمة واحدة، الذكاء. قوة العاصفة والزوبعة التي تدور بلا هدف، قوة المحيط الذي يرتفع بلا هدف، قوة الجبل الذي يرتفع من دون أن يسعى أو يصل إلى شيء، قوة الرجل العبقري الذي يتسع مثل محيط جديد وإذا الفيضان الضروري بإسقاط كل العوائق، "حقوق العبقرية"، والأخلاق الخاصة للرجال العظماء، و"حتى حقوق العاطفة"، من العاطفة الوحشية البسيطة، والعبقرية إلى قوة العنف- الحب، والغضب، والانتقام، وكل ما يتم إطلاق العنان له. إلى درجة عدم معرفة المزيد من القانون؛ هذا ما أسكرته الرومانسية وأسكرتنا جميعاً في القرن التاسع عشر. ولكن، من وجهة النظر الفلسفية كما من وجهة النظر العلمية، ما الذي يمكن أن يكون أكثر غموضاً وأكثر مراوغة من فكرة القدرة أو فكرة القوة؟

يخبرنا زرادشت: هذا الشخص بالتأكيد لم يواجه الحقيقة التي تتحدث عن إرادة الحياة؛ هذه الإرادة غير موجودة. لأن ما ليس موجوداً لا يمكنه أن يريد، وكيف يمكن لما هو موجود في الحياة أن

يظل يرغب في الحياة؟" - كان شوبنهاور سيجيب بلا شك:- ما في الحياة يرغب في استمرار الحياة؛ كما أنه يرغب في زيادة الحياة بجميع أشكالها، وعلى وجه الخصوص، زيادة الوعي الحياتي. لكن، كما يعترض نيتشه، فإن المبدأ الحقيقي ليس إرادة الحياة؛ "إنها - ما أعلمه - إرادة القوة". وسنجيب بدورنا: القوة مقتطف بسيط من الحياة. "الحياة نفسها، يستأنف زرادشت، لقد أسرتني بهذا السر.- ها هو! قالت: "أنا الذي يجب أن أتغلب على نفسي دائماً". تعريف جميل وشاعري، ولكن الذي لا ينبغي لشعره أن يحجب عنا الغموض. كيف تتغلب الحياة على نفسها؟ بالعيش لفترة أطول؟ العيش بشكل أفضل؟ بالنسبة إلى نيتشه، هذا يعني ببساطة: اكتساب المزيد من القوة؛ لكن كلمة القوة، Macht، ليست أوضح من غيرها، حيث يبقى دائماً أن نقول ما يستطيع المرء، وما يريده، وما يجب عليه. القوة، لا شيء أفضل، لكن قوة ماذا؟ إن القوة، مثل الإمكانية، تجريد لا يمكن فهمه إلا من خلال ربط نفسها ببعض الواقع. الإنسان الذي يستطيع أن يفهم ما لا يفهمه الآخرون، الإنسان الذي يستطيع فهم الحقيقة عن طريق العلم، لديه القوة أيضاً. الإنسان الذي يستطيع أن يحب الآخرين، ويخرج من نفسه ومن حدوده ليعيش حياة الآخرين، هو أيضاً يملك القوة. فهل ستدعو بعد ذلك القوي أو القوي فقط من له أذرع قوية؟ إنه قوي بدنياً، ومن المؤكد أنه سيجلب، كما تفاخر تيوفيل غوتييه، الرقم 100 على مقياس القوة؛ لكن تيوفيل غوتييه كان يتباهى أيضاً بقدرته على صنع استعارات يتبع بعضها بعضاً، واعتبر ذلك نوعاً من القوة. لا يزال ربط الأفكار التي تتبع بعضها البعض يمثل قوة. لا يزال ضبط مشاعرك وتنظيمها يشكل قوة. فكيف تأمل إذن أن تبني

عقيدة للحياة، وما يسمى بعقيدة جديدة، على كيان فارغ مثل كيان السلطة؟ إن ما يسمى بمفهومك الحديث هو سكولائي مثل الإيمان بقوة الأفيون النائمة. إن تحويلك لكل القيم إلى قيم قوة هو تحويل لكل الحقائق إلى أبخرة الإمكان؛ إنها ليست كيمياء علمية، إنها كيمياء ميتافيزيقية. حيث قال شوبنهاور: إرادة الحياة، أنت تقول ببساطة: إرادة القوة، وبالنسبة لكلمة غامضة بالفعل، ولكنها تعبر على الأقل عن واقع ملموس، فإنك تستبدلها بمصطلح لم يعد يعبر عن أي شيء سوى الافتراضية المحضة.

هل ستقول إن القوة هي "الهيمنة"؟- الهيمنة على من؟- على نفسه وعلى الآخرين.- في الوقت المناسب، في الوقت الملائم! "ولكن إلى ماذا تشير السيادة الذاتية؟" قوة الإرادة، على افتراض أن لدينا إرادة، والتي تتكرونها بخلاف ذلك؛ ويبقى دائماً أن نعرف ما نريد، وما نجعله يهيمن على غرائزنا الأخرى. الإرادة بالنسبة إليك ليست سوى غريزة أقوى تُخضع الباقي؛ ولكن بعد ذلك سأسألك: "ما هي أو ما يجب أن تكون عليه هذه الغريزة المهيمنة؟" للإجابة:- "غريزة الهيمنة"- هي الإجابة بالسؤال. هنا مرة أخرى، أنت تدفع ثمن الكلمات المجردة والفارغة. هل ستكون أكثر سعادة بالسيطرة على الآخرين؟ ولكن هناك مائة طريقة لفهم هذه الهيمنة. الوحشي الذي يطرقك بلكمة يسيطر عليك. المجادل الذي يدحضك بأسباب وجيهة يسيطر عليك. من يقنعك بأن يجعل نفسه محبوباً منك، يسود عليك. فإن كان شمشون قد سيطر بقوته، فقد غلبته دليلة بجمالها. وكان شَعر دليلة أقوى من شَعر شمشون. لقد كانت هناك أيضاً في العالم انتصارات للوداعة أكثر انتصاراً من كل انتصارات القوة. ما هي إرادتك للسيطرة؟ إطار فارغ آخر ينتظر أن يُملأ،

وليس بكلمات أخرى ستملأه حقاً، سيطرة الأقوى لا تعني شيئاً، لأنه يبقى تحديد طبيعة ونوعية قوته.

من الناحية الفلسفية والعلمية، القوة هي القدرة على إحداث الحركة وإحداث التغيير في العالم؛ إنها، إذا جاز التعبير، السببية في الفعل. حسناً! إذا كان الأمر كذلك، فهل ستؤكد أن عارضيك ورجالك الخارقين، مثل "نابليون" و"بورجيا"، هما الوحيدان اللذان أدخلا تغييرات على العالم؟ المسيح، الذي لا تحتقر ضعفه وصلاحه، ألم يُحدث، ليس فقط على سطح الأرض، بل في أعماق القلوب، تغييرات أكثر مما أحدثته انتصارات بونابرت العابرة، وفوق كل شيء طقوس العريدة والشعوذة. اغتيالات بورجيا؟ من الأقوى قيصر نفسه أم يسوع؟ إذا غزا الأول بلاد الغال، فقد غزا الثاني العالم.

إن علم النفس المسكين هو الذي يصرخ: ما هي السعادة؟- الشعور بأن القوة تنمو، وأن المقاومة قد تمّ التغلب عليها. أولاً، أنت تعترف هنا على نسبية القوة بالنسبة إلى المقاومة، كما هو الحال في الرافعة؛ لكن المقاومة بدورها هي فقط الشيء المقاوم. التغلب على المقاومة يمكن أن يسبب المتعة، وليس السعادة. أن تكون واعياً بالقوة ليس السعادة أيضاً.

يا رب، لقد عشت عظيماً ووحيداً!

يبقى دائماً أن نعرف لماذا يستخدم موسى قوته، والتأثير الذي تحدثه خارجنا وقبل كل شيء داخلنا. "ليس الرضا، يضيف نيتشه، ولكن القوة أيضاً! ولا يرى أنه هو نفسه راضٍ بسلطته، وأنه مخمور بسلطته؛ أنه إذا قمنا بقمع رد الفعل العكسي للنشاط على الذكاء والحساسية، فلن يكون هناك المزيد من السعادة.- "ليس السلام قبل كل شيء، بل الحرب!" وهنا مرة أخرى، ينسى نيتشه أن القوة التي تواجه عقبة وتضطر إلى النضال تتضاءل بالتالي، في حين أن القوة

التي تتوسع من دون عقبة ومن دون صراع تتمتع بإحساس أكبر بالامتلاء. أليس للسلام في الامتلاء أيضاً فرحه الذي يستحق فرح الصراع والقتال؟ فكيف يمكن إذن لفيلسوف يريد أن يعيد إلى النفس الإنسانية كل ثروتها أن يبدأ بإفقارها، وأن ينزع منها فرحة الانتصار من دون قتال، والحق في الحب والمحبة، والعيش في الآخرين مثلما يعيش في نفسه، ليضاعف بذلك حياته الخاصة بحياة الجميع؟ سوف يغني زرادشت بنفسه، هذا صحيح، ترانيم الحب الرائعة:

لقد حلّ الليل، والآن يرتفع صوت الينابيع المتدفقة. وروحي أيضاً ينبوع متدفق.

لقد حلّ الليل: لقد استيقظت الآن كل أغاني العشاق. وروحي أيضاً أغنية عاشق.

هناك شيء غير مهدئ وغير قابل للتهدئة بداخلي يريد أن يرفع صوته. هناك في داخلي رغبة في الحب تتحدث هي نفسها لغة الحب...

لكن الحب سيظل بالنسبة إلى زرادشت مجرد الرغبة في بسط سلطته على الآخرين؛ سيكون أحد الأشكال، الأدنى أو الأعلى، لـ الإرادة أو السلطة. هل هذا حقا الحب الحقيقي؟

إن دين القوة الخالصة يعيدنا إلى عبادة الأب القديمة، على حساب الابن وقبل كل شيء الروح. إذا كان الابن يرمز إلى الحق وصلاح الروح، فمن المخيف أن يتمّ دفع الحق والصلاح إلى الخلفية، بل وحتى إنكارهما من قبل أي عابد للقوة النقيّة. وهذا في الواقع، كما سنرى، ما يحدث لمرنم زرادشت.

III

في الأساس، إن مفهوم المبدأ الأول للوجود، عند نيتشه، هو مفهوم شوبنهاور نفسه؛ لأنه لا يهم كثيراً تعريف الوجود بإرادة الحياة أو بإرادة القوة، الأمر الذي يؤدي في نهاية المطاف إلى الخلط بينها. لكن الفارق الكبير بين شوبنهاور وتلميذه هو أن الأخير يقمع كل ما ليس "صيرورة" خالصة؛ ما وراء عالم الظواهر، لا يترك شيئاً، والإرادة نفسها لم تعد تشكل أرضاً مختلفة عن السطح. نيتشه من أنصار الواقعية المطلقة. مثل غوته، يقول للفلسطيني: أنت تبحث عن قلب الطبيعة، ولكنك أعمى، أنت دائماً هناك، في قلب الطبيعة؛ لا توجد حقيقة متميزة عن هذه الظاهرة، ولا يوجد ما وراءها. العالم "الحقيقي"، الذي تخيله أفلاطون، هو نفس العالم الحقيقي.- «يوم عظيم، غداء، عودة الفطرة السليمة والبهجة، خجل أفلاطون المذهول؛ السبت لجميع الأرواح الحرة. لقد قمنا بقمع العالم الحقيقي. ما هو العالم الذي بقي؟ هل يمكن أن يكون عالم المظاهر؟ لكن لا، في نفس الوقت الذي قمنا فيه بالعالم الحقيقي، قمنا بقمع عالم المظاهر. الظهيرة. لحظة أقصر ظل. نهاية أطول خطأ؛ قمة الإنسانية. افتتاحية زرادشت. هذه هي العقيدة العظيمة، والاكتشاف العظيم. ومع ذلك، لم تكن الظاهراتية غريبة على أسلاف أفلاطون، وهذا الأخير، عندما وجد هيراقليطس في زرادشت، لم يكن لديه خجل يائس على جبهته. "الظهيرة" قد تشرق وقد يكون الظل هو الأقصر، سيكون هناك ظل دائماً؛ سنتساءل دائماً عمّا إذا كان الفكر الإنساني مساوياً للواقع الجذري والعالمي، وما إذا كان العالم المُمثل والعالم الحقيقي متطابقين تماماً. إذا لم يكونا كذلك، فهناك مجموعة من المظاهر التي قد لا تكون الكشف الكامل عن الواقع،

والتي قد يتبين في حالات معينة أنها صحيحة، وفي حالات أخرى يتبين أنها كاذبة.

لكن نيتشه، من جانبه، يأمل أن يتجاوز الحقيقة والخطأ، كما يتجاوز الخير والشر. بالنسبة إليه، فإن من يسمون بالمفكرين الأحرار "بعيدون عن التفكير بحرية، لأنهم "ما زالوا يؤمنون بالحقيقة!" ويضيف نيتشه أنه عندما اصطدم الصليبيون في الشرق « بـ نظام الحشاشين الذي لا يقهر، وبـ هذا النظام من الأرواح الحرة بامتياز، الذين عاش أتباعهم من الدرجات الدنيا في طاعة لم يعرفها نظام الرهبان أبداً، حصلوا، ولا أعرف بأي طريقة، على بعض الدلائل عن الرمز الشهير، عن المبدأ الأساسي الذي كانت معرفته محفوظة لكبار الشخصيات، فقط الوديعين لهذا السر النهائي: "لا شيء حقيقي، كل شيء مباح. لقد كانت هناك أخيراً، كما يقول نيتشه، « حرية الروح الحقيقية، وهي الكلمة التي شككت حتى في الإيمان بالحقيقة!» العالم الحديث الذي يعتقد أنه روح حرة، داروين أو القس الذي، بنوع من الرواقية الفكرية، يخضع للحقائق والقوانين بينما ينسى نفسه، والذي ينتهي به الأمر إلى منع نفسه بذات القدر من القسوة طمعاً في "لا أو نعم"، الذي يفرض جموداً مرغوباً أمام الواقع، فيمارس بالتالي زهداً جديداً، فالعالم لديه إرادة مطلقة للحقيقة، ولا يرى أن هذه الإرادة هي الإيمان بالمثل الزاهد بالنسبة له. "أليس هو في الحقيقة الإيمان بقيمة ميتافيزيقية، بقيمة فوق الحقيقة، قيمة لا يضمنها ويقدسها إلا المثل الزاهد (يبقى معه ويختفي[5])؟" فالرجل الصادق، "الصادق بالمعنى المتطرف والمتهور الذي يفترضه الإيمان بالعلم"، يؤكد بذلك "إيمانه بعالم آخر غير عالم

[5] - *Généalogie de la morale*, p. 261.

الحياة والطبيعة والتاريخ[6]، في عالم حقيقي، يخالف المظاهر؛ فالعالم إذاً لا يزال رجلاً متديناً، لأنه على دين الحق؛ كان سيقول بكل سرور إن الحق هو الله، وبالتالي، إن الله هو الحق. وحتى لو كان ملحداً مثل لاغرانج (Lagrange) أو لابلاس (Laplace)، فهو لا يعتقد أنه مسموح له بانتهاك الحقيقة، لا بالفكر ولا بالعمل. يسأل نيتشه بيلاطس البنطي، الذي كان بالفعل روحاً حرة: "ما هي الحقيقة؟" وينتهي به الأمر بأن يرد مع زعيم الحشاشين: "لا شيء صحيحاً"؛ ويترتب على ذلك نتيجة ضرورية: كل شيء مباح.

هذه الصفحات هي من بين أعمق صفحات نيتشه، لأنه رأى بوضوح أن الحقيقة والعلم والأخلاق تسير جنباً إلى جنب، وأن الثلاثة هي بالتأكيد لعالم آخر غير عالم حواسنا وحتى تفكيرنا. على هذا العالم الآخر يعلن نيتشه حرباً بلا هدنة ولا رحمة. إنه يمثلها لنفسه على أنها معارضة للواقع، كعدو للواقع نفسه، كهاوية لا يمكن سبر غورها حيث تريد منا أن نعبد الألوهية. ألا يدعونا سبنسر (Spencer) نفسه إلى الركوع أمام علامة الاستفهام الكبيرة؟ بهذا المفهوم يعارض نيتشه الظاهرة المطلقة للمدرسة الأيونية.

ولكننا سوف نتساءل: هل الحقيقة التي يبحث عنها العلم إذن هي حقيقة روحانية وزهدية كما يحب نيتشه أن يتخيلها؟ في رأينا، العالم الحقيقي ليس منفصلاً عن العالم الواقعي؛ إنه العالم الحقيقي نفسه، العالم كما هو، كما تشكل، كما أصبح وسيصبح. السؤال برمته هو معرفة ما إذا كانت حواسنا غير الكاملة وغير الدقيقة تكشف لنا، ولنتوقف بعد الآن عن قول الحقيقة، بل "الواقع"؛ حتى لو كانت قدراتنا الفكرية كافية، دعونا لا نتحدث عن

[6]- *Le gai savoir*, V, aphor. 344.

الحقيقة، بل عن الواقع. فهل يخطئ الفلاسفة والعلماء في الإجابة على هذه المشكلة: لا؟ قبل اكتشاف الكهرباء، لم تكن حواسنا قادرة على جعلنا نفصل هذه القوة عن قوى الطبيعة الأخرى؛ قبل اكتشاف الأشعة السينية، لم تكن أعيننا قادرة على جعلنا نتوقعها. يعرف نيتشه كل هذا، مثل أول طالب يأتي من صالة للألعاب الرياضية؛ لقد استعار هو نفسه من المدرسة الإنجليزية المبدأ القائل بأن حواسنا هي في المقام الأول أدوات للمنفعة الحيوية، وليست أدوات للمعرفة النزيهة، وبالتالي لا يمكنها أن تخبرنا ما هي الأشياء التي تختلف عن احتياجاتنا الخاصة. فكيف ينسى الآن هذا المبدأ، إلى درجة أنه يريد إقناعنا بأن عالماً ما ليس أكثر واقعية من الآخر، وأن عالم كوبرنيكوس ليس أكثر واقعية، دعنا نقول أكثر واقعية، من عالم بطليموس، وأن عالم كوبرنيكوس ليس أكثر واقعية، دعنا نقول أكثر واقعية من عالم بطليموس. هل كتب الفيزياء التي بين أيدي طلابنا تعكس الواقع أفضل من كتب طاليس؟ "لا شيء حقيقياً" يعني، في التحليل النهائي: لا شيء واقعياً. وراء الإحساس الحاضر والمظهر العابر، لا يوجد شيء؛ ليس "الإنسان هو مقياس كل شيء" فحسب، بل إن الإحساس الفعلي هو مقياس كل شيء، إنه كل الواقع. إذا كان علماؤنا لا يعترفون بمثل هذا الانحراف في الفكر، فهم ليسوا زاهدين ولا روحانيين؛ على العكس من ذلك، فإن أقدامهم ترتكز على أرض صلبة، ونيتشه هو ألعوبة السراب الجوي. ولذلك ليس هناك حاجة، في رأينا، إلى افتراض عالم حقيقي وراء العالم الواقعي، ولكن في العالم الواقعي نفسه هناك عالم كلي يتجاوز الإنسان، وهناك عالم إنساني محض وهو عالم أحاسيسنا وحتى عالم معارفنا، هو جزء بسيط من الواقع، جزء لا يجب أن نخلط بينه وبين الكل. الصحيح هو الكل، لأنه وحده واقعي تماماً، وكلما اعتقنا

العلاقات، وارتباطات الحقائق، والقوانين، كلما اقترينا من الكل، من الحقيقة المتطابقة مع الواقع. في سلوكنا ذاته، يمكننا أن نسير في اتجاه يتوافق مع الحقيقة أو يتعارض معها ومع الواقع تماماً، نحو "الحياة"، لنتحدث مثل غويو ونيتشه نفسه. علاوة على ذلك، ألا يميز نيتشه، بعد أن أنكر الحقيقة، بين حياة أكثر حقيقية أو أكثر واقعية، وحياة أخرى أكثر زيفاً وأقل حياةً؟ لذلك فهو أيضاً يؤمن بالحقيقة! وهو يستهزئ بالحقيقة، ويقضي أيامه ولياليه في البحث عن الحقيقة؛ وهو نفسه يمارس هذا الزهد النبيل الذي يسخر منه: فهو أيضاً يريد أن يضع نفسه في حضرة الكائن، من دون أن يمزج به شيئاً يغير لا في صفاء النظر ولا في صفاء النور.

– سيقول نيتشه إما أن هناك خطأ ومظاهر؛ لكن المظهر ليس في المكان الذي يوضع فيه عادة، في عالم الصيرورة؛ إنه، على العكس من ذلك، ما يسمى بعالم الوجود الذي هو ظاهري فقط. إن أفكار السبب والنتيجة، والمكان والزمان، والوحدة، والهوية، والتشابه أو الاختلاف، وجميع الفئات والأشكال الضرورية لأفكارنا ليست سوى أوهام ضرورية. إن فكرة الوهم الفطري في الإنسان، والتي سبق أن عبر عنها أفلاطون في استعارته للكهف، قد طاردت كل العقول منذ كنط[7]. ويتبناها نيتشه بدوره، ويبالغ فيها إلى حد قمع كل «الحقيقة»، لكنه يقنع نفسه بأن الفكرة جديدة. "دعونا نحدد، كما يقول، الطريقة التي نتصور بها (أقول "نحن" من باب الأدب...) مشكلة الخطأ والمظهر". لذلك يعتقد نيتشه أنه أول من تصور "الصيرورة" كواقع، والوحدة والهوية كأوهام؛ فهو لا يعلم أنه كان

7 - Cf. Guyau, *Vers d'un philosophe : l'Illusoir féconde.*

هناك هيراقليطس قبله، فقد اخترع الظاهرة، واكتشف هذا البحر الأبيض المتوسط!

ومع ذلك، دعونا نمنحه عقيدته الجديدة المفترضة المتمثلة في الظاهرة المطلقة والوهم المطلق؛ ولن يكتسب سوى تناقض آخر مع عقائد دينه الأخرى. إذاً، في الواقع، لا يوجد سوى صيرورة وظواهر بدون قوانين (وهذا ما يؤكده نيتشه، الذي يسخر من فكرة القانون الإنسانية)، فكيف يمكننا مع ذلك الاعتراف بالضروريات والاعتراف بالقدرية المطلقة؟ فالضرورة هي العودة المتطابقة لنفس الظواهر، إنها الوحدة. وسنرى الآن الأهمية التي اكتسبتها فكرة العود الأبدي في دين نيتشه؛ فكيف يستطيع أن ينكر كل قانون وهو الذي يعيد شريعة القوانين؟ ولا شك أنه لا يتصور أن الفلاسفة والعلماء ما زالوا يفهمون بالقانون تشريعاً لإرادة ما، وليس ضرورة مبنية على طبيعة الأشياء!

علاوة على ذلك، كيف سيتمكن نيتشه من التوفيق بين هذه الظاهرة والواقعية المطلقة وجهوده الخاصة لدفع الإنسانية نحو المثل الأعلى للرجل الخارق؟ قال: "لا أحد يعطي الإنسان صفاته، لا الله، ولا المجتمع، ولا أقرانه وأجداده، ولا نفسه... لا ينبغي فصل موت وجوده عن موت كل ما كان وما كان". كل ذلك سيكون. الإنسان ليس نتيجة لنيته، أو إرادة، أو هدف- معه، لا يخجل المرء من الوصول إلى المثل الأعلى للإنسانية، أو المثل الأعلى للسعادة، أو في الواقع المثل الأعلى للأخلاق؛ فمن السخافة أن يرغب المرء في انحراف كيانه نحو أي هدف. لكن ألا يريد نيتشه أيضاً أن "ينحرف كياننا" نحو هدف، ونحو هدف فوق إنساني؟ يقول مرة أخرى: "لا يوجد شيء يمكن أن يحكم على وجودنا ويقيسه ويقارنه، لأن ذلك يعني الحكم على الوجود كله وقياسه ومقارنته وإدانته... ولكن لا يوجد شيء في الخارج

على الإطلاق. لماذا إذن يحكم هو نفسه على أن السادة متفوقون على "العبيد"، والنبلاء والأقوياء على الأشرار والضعفاء، والرجل الأعلى على الإنسان؟ لماذا يقارنهم؟ "افعلوا كالريح إذا طلعت من مغاور الجبل. ارفعوا قلوبكم، أعلى، أعلى، أعلى! هكذا تكلم زرادشت".- ولكن إلى أي مدى يعرف زرادشت ما هو أعلى؟" يندلع التناقض مرة أخرى في نظام نيتشه؛ بين حتميته القدرية وأخلاقه أو الأخلاق الفائقة- التي، علاوة على ذلك، نحن لا ندعي تقديرها اليوم- ثمة تناقض كامل.

لقد قمع نيتشه كل غرض وكل معنى للوجود الكوني، ومع ذلك فهو يدعي أنه يحتفظ بفكرة "البطل" الذي، عندما يعطي لنفسه هدفاً، يمنحه أيضاً لكل شيء آخر. ولكن كيف سيحدد البطل مثل هذا الهدف، إن لم يكن بفعل ذكاء يمكن الحكم عليه دائماً، أو بدافع من القلب يمكن تقديره دائماً؟ وما أهمية الهدف الذي حدده الإنسان الأعلى لنفسه، إذا كانت الطبيعة- كما سيظهر نيتشه نفسه- تعارض هذا الهدف بـ "لا" غير مرنة وتسحق الإنسان الأعلى مع كل شيء آخر؟

IV

لقد درس نيتشه "فسيولوجيا" اليونان القديمة التي تصورت العودة الأبدية للأشياء في "السنة العظيمة"، الحريق العالمي الذي يتبعه استئناف عالمي بنفس الترتيب، في نفس المكان، في نفس الوقت، إلى الوصول مرة أخرى إلى النار الكونية: يولد طائر الفينيق من رماده من جديد ليحترق من جديد ويولد من جديد إلى ما لا نهاية. لدى سبنسر أيضاً "عامه العظيم"، لأنه يفترض حدوث حريق كامل للكون، ثم تكثيف بالتبريد، مما يؤدي إلى تكوين كتلة واحدة؛ وهو أيضاً يتساءل عمّا سيحدث بعد ذلك، ويقترح أن كل شيء سيبدأ من جديد، لكنه لا يخبرنا أنه سيكون بنفس الطريقة وبنفس الترتيب. كتب هاينه، في إضافاته إلى "رحلة من ميونيخ إلى جنوى"، هذا المقطع الذي لم يظهر في الطبعات القديمة والذي لابد أن نيتشه لم يعرفه: "بموجب قوانين الاتحاد الأبدية، فإن جميع الأشكال التي كانت موجودة على هذه الأرض سوف تظهر مرة أخرى". بلانكي (Blanqui)، في كتابه "الخلود بالنجوم" (1871)، استنتج من نظرية التركيبات أن هناك حاجة إلى تكرارات لا نهاية لها لملء اللانهاية، إما بالزمان أو المكان. "ما أكتبه في هذه اللحظة في زنزانة في حصن دو تورو، كتبته وسأكتبه إلى الأبد على طاولة، بقلم، تحت الملابس، في جميع الظروف المماثلة. كل فرد موجود في عدد لا حصر له من النسخ. "إنها تحتوي على متشابهات كاملة ومتشابهات مختلفة. في عام 1878، نطق عالم الطبيعة الألماني الشهير دي نيجيلي (de Neegeli)، في خطابه حول حدود العلم، بهذه الكلمات التي يبدو أن

مفسري نيتشه لا يعرفونها، والتي لاحظناها من جانبنا[8]: "بما أن الحجم والتكوين وحالة التطور تظل ضمن حدود محدودة، فإن المجموعات الممكنة تشكل عدداً كبيراً لا نهائياً، وفقاً للتعبير المكرس، ولكن ليس لانهائياً بعد. تم استنفاد هذا العدد، ويجب تكرار نفس المجموعات. لا يمكننا تجنب هذا الاستنتاج بالاعتراض على أن ملايين الأجرام "السكستليونات" السماوية والأنظمة السماوية ليست كافية لاستنفاد عدد المجموعات المحتملة؛ لأن السكستليونات هي أقل في الأبدية من قطرة ماء في المحيط. وهكذا نصل إلى هذا الاستنتاج الرياضي الصارم، ولكنه بفيض على عقلنا، وهو أن أرضنا، تماماً كما هي الآن، موجودة مرات عديدة، حتى مرات لا حصر لها، في الكون اللا متناهي، وأن اليوبيل الذي نحتفل به اليوم يتم الاحتفال به بشكل صحيح الآن في العديد من الأراضي الأخرى".

نحن نرى أن العودة الأبدية في الزمن يمكن، بل ويجب، أن تكون معقدة بسبب التكرار الفعلي إلى ما لا نهاية، من خلال نوع من العودة الأبدية في المكان، وهو الأمر الذي لم يتحدث عنه نيتشه.

وقد أهمل معلّقو نيتشه أيضاً الإشارة إلى أنه في "أشعار فيلسوف" التي ظهرت عام 1881، جعل غويو التحليل الطيفي والتكرار اللانهائي موضوعاً لواحدة من أفضل مسرحياته الغنائية. لقد رأى أيضاً أن النتيجة الأكثر وضوحاً وفورية للاكتشاف الطيفي هي العودة اللانهائية لنفس العناصر، ليس فقط في الزمان، ولكن أيضاً في المكان.

في كل مكان الطبيعة هي نفسها بأعيننا:

اللامتناهي لا يحتوي على أي جديد بالنسبة لنا...

---

[8] - Crépuscule des idoles, p. 155

إلى أي نقطة تتجه أيها الأمل المتردد،

في هذه السماء السوداء، المليئة بالهيدروجين والحديد،

حيث تستطيل المادة المحترقة أو تتكثف

مثل ثعبان ضخم ملفوف في الأثير؟

وبما أن كل شيء يتشابه ويتماسك في الفضاء،

وأخشى أن يتم نسخ كل شيء أيضاً في الوقت المناسب؛

ما مضى يعود وما يعود يذهب:

سلسلة السنوات هي دائرة لا نهاية لها.

هل ثمة من جديد سيُفتح في المستقبل؟

ربما،- إذا عدنا إلى الوراء، إلى الأمام،-

كل شيء يبقى على حاله؛ في المسافة لا نكتشف

سوى ثنيات والتفافات الثعبان العظيم المتحرك.

في مواجهة إمكانية العودة الأبدية لنفس الأشياء في الزمان كما في الفضاء، لدرجة أن شعاع الضوء الذي يعبر الضخامة، إذا كان يمكنه أيضاً عبور الأبدية، سيعطي دائماً نفس الطيف ويكشف نفس المشاهد،- لا يشعر غويو بالحماس الذي سيشعر به نيتشه؛ على العكس من ذلك، فهو يسأل الطبيعة بنبرة اليأس اللا متناهي:

منذ الأبدية ما هو الهدف الذي يمكنك تحقيقه؟

إذا كان هناك هدف، فكيف لا يمكن الوصول إليه؟

ماذا ينتظر مثلك الأعلى أيتها الطبيعة ليعيش؟

أم مثل شموسك قد انطفأ أيضاً؟

وهكذا انتهت الأبدية فقط في هذا العالم!

هل تستحق ذلك؟ فهل نحن البشر نستحق مثل هذا الجهد؟

....

أه! لو أن فكرنا كان خصباً بما يكفي.

هو الذي يرى الأفضل، يدرك ذلك!

لو أن أحلامه تنبت! أوه! لو كان في هذا العالم الثقيل

يمكن أن يزن جناحه الخفيف قليلاً!

أشعر به يعيش في داخلي، وأتمنى من خلاله

أن أرى يوماً المستقبل يتغير في عيني...

لكن، يا فكري، هل أنت جديد حقاً؟

ألم تولد وتوفيت في مكان ما؟

وهكذا ينبت في غويو الحلم الرياضي المتمثل في التكرار الذي لا نهاية له، والذي من شأنه أن يجعل نفس الفكر اليوم قد ولد ومات بالفعل مرات عديدة وفي أماكن كثيرة. وبعيداً عن رؤية غويو في هذا موضوعاً للثمالة، فإنه يرى فيه الكلمة الأخيرة للإحباط وعقيدة اليأس الأسمى. طاردته نفس الفكرة مرة أخرى، وفي أحد الأيام،

عندما كان يتأمل بجوار البحر، ظن غويو أنه رأى في المحيط ليس مرآة الله، بل مرآة طبيعة بلا هدف، تكرر نفسها إلى ما لا نهاية. نفس التوازن العظيم بين الحياة والموت، اللفافة الأبدية العظيمة التي تحتضن الكائنات. "بينما أفكر، يبدو أنني أرى المحيط يرتفع من حولي، ويغزو كل شيء، ويأخذ كل شيء بعيداً؛ ويبدو لي أنني لم أعد سوى إحدى أمواجه، قطرة من قطرات ماء أمواجه؛ بأن الأرض اختفت، وأن الإنسان قد اختفى، وأنه لم يبق سوى الطبيعة بتموجاتها التي لا نهاية لها، وتعاقباتها، والتغيرات الدائمة لسطحها التي تخفي تجانسها العميق والرتيب[9]". ولكن بدلاً من قبول هذا التكرار الأبدي، وبدلاً من قول نعم للعودة التي لا نهاية لها لنفس المآسي ونفس المعاناة، ينتهي الأمر بـ غويو بالبحث في حياة إنسانية متفوقة وفوق طاقة البشر حقاً عن سبب الأمل في الطبيعة.

في نفس العام الذي نشر فيه غويو كتاباً بعنوان "أشعار فيلسوف"، نشر السيد غوستاف لوبون كتاب "الإنسان والمجتمعات"، وفي المجلد الثاني أكد أن "نفس العوالم التي تسكنها نفس الكائنات لابد أنها تكررت عدة مرات".

وهكذا، من جميع الجوانب، نجد نفس الهوس في العقول الأكثر اختلافاً. في ذلك الوقت، تخيل نيتشه، الذي كان مفتوناً بدوره بهذه الفكرة القديمة القائلة بأن العلم الحديث قد جدد شبابه، أنه قد حقق اكتشافاً هائلاً، وأنه سيجلب للبشرية الأخبار العظيمة التي ستؤرخ الحقبة المستقبلية.

---

[9]-Von Nægeli, *les Bornes de la Science*, discours prononcé au Congrès des naturalistes allemands, session de Munich, en 1818, et traduit dans la *Revue Scientifique* du 13 avril 1818.

"أنا زرادشت، مؤيد الحياة، مؤيد الألم، مؤيد الدائرة- أنت من أدعوك، أنت أعمق أفكاري!...

"كل شيء يذهب، كل شيء يعود، عجلة الوجود تدور إلى الأبد.

"كل شيء يموت، كل شيء يزدهر من جديد؛ تتدفق فصول الوجود إلى الأبد.

"كل شيء يتحطم، كل شيء يُعاد بناؤه؛ يبني إلى الأبد نفس بيت الوجود.

"كل شيء ينفصل، كل شيء يعود معاً مرة أخرى؛ فحلقة الوجود تظل صادقة مع نفسها إلى الأبد.

"في كل لحظة يبدأ الوجود؛ حول كل هنا تدور الكرة هناك. المركز في كل مكان. وطريق الخلود متعرج"[10].

إن المفهوم الرياضي للعناصر المحدودة، مجتمعة في الزمان اللامتناهي والفضاء اللامتناهي، كان من الممكن أن يبدو جديداً جداً بالنسبة إلى نيتشه ويثير حماسته إلى هذا الحد؛ أن مذهبه عن الإنسان الخارق أدى إلى تمثيل الإنسان الخارق نفسه أمامنا على أنه سراب سريع الزوال، والذي أنتج نفسه عدداً لا حصر له من المرات واختفى في عدد لا حصر له من المرات، والذي سوف يتكاثر إلى ما لا نهاية بنفس الطريقة ليختفي إلى ما لا نهاية، وأن هذا المفهوم للهوية الأبدية، وهو مفهوم الغرور الأبدي، كان من الممكن أن يبدو

---

[10] -Dans son exemplaire de l'*Esquisse d'une morale sans obligation ni sanction*, Nietzsche a souligné tout ce passage et mis en face deux traits, avec le mot : *Moi.* Nous devons la communication des remarques de Nietzsche sur l'ouvrage de Guyau à l'obligeance de M[me] Förster-Nietzsche et aux recherches du *Nietzsche-Archiv* ; nous leur exprimons ici toute notre gratitude.

لنيتشه أسمى فكرة عن الحياة، وهذا ما يصعب علينا شرحه من دون أن أعترف بالفعل أنني لا أعرف ما هو الخطأ في هذا الدماغ في الولادة الدائمة.

اعتمد نيتشه "على التحليل الطيفي لتأكيد رؤيته للعالم"؛ لقد اعتمد على "اتحاد الفيزياء والرياضيات" – وهو الذي صور كل هذه العلوم على أنها تدور حول مفاهيم وهمية تماماً! فهل صحيح إذن أنه كان من الممكن تأكيد العقيدة الكبرى لما يسمى بالدين الجديد من خلال هذه العلوم؟ هل صحيح أن العالم محكوم عليه بالتكرار المستمر، بنوع من الايكولاليا (الصدى اللفظي، التكرار المستمر)، مثل هؤلاء المجانين التعساء الذين يكررون نفس العبارة مراراً وتكراراً أو يرددون أي عبارة تقال أمامهم؟ لكن الفيلسوف يستطيع أن يقول كلمته هنا. والتكهنات من هذا النوع، في الواقع، تقوم على هذه الفرضية القائلة بأننا نعرف جميع عناصر الأشياء، وأن هذه العناصر، مثل ما يسمى بالأجسام البسيطة في الكيمياء، هي أنواع ثابتة في مثل هذا العدد المحدد، 80 مثلا أو 81، وليس أقل، كما لو كان هذا الرقم عقائدياً ويعبر عن الطبيعة المطلقة. منذ ذلك الحين، وبموجب نظرية التركيبات، سيكون من الضروري فقط البحث عن عدد مجموعات عناصرنا الثمانين– وهو عدد محترم بالفعل، ولكنه محدود؛ ومن ثم نصادف قانون التكرار في الزمان والمكان، في «عام عظيم» يبدأ من جديد متطابقاً مع نفسه. مثل المشكال الذي، بفضل دورانه، سيعيد لأعيننا نفس سلسلة الرؤى. حسناً! بالنسبة للفيلسوف، فإن مثل هذه التخمينات العلمية كلها ذاتية: لا يمكن لأحد أن يدعي معرفة عدد العناصر الثابتة (إذا كانت هناك عناصر ثابتة)، ولا كل قوى الطبيعة الممكنة، ولا كل تحولاتها المحتملة. هنا

يناقض نيتشه نفسه مرة أخرى، لأنه قدم الطبيعة لنا على أنها لا تتضب، وأصبحت كالسيل الذي لا يمكن لأي شيء أن يحده أو يوقفه، والذي يذهب أبعد من ذلك دائماً ويمكنه دائماً أن يتخذ أشكالاً جديدة؛ من إطارات وصناديق دماغنا البشري المسكين، من فئات فكرنا . والطبيعة بالنسبة له لا تهتم بفئاتنا، وفيزيائنا وقوانينها التي يفترض أنها غير قابلة للتغيير، وهندستنا ونظرياتها التي يفترض أنها ضرورية! يذهب، ويجري، ويصعد، ويهبط، ويتغير، ويهرب، وهو في جيل أبدي. هذا ما قاله نيتشه وكرره لنا؛ وهو الآن يسجد أمام قانون التركيب الرياضي الذي يصبح بالنسبة له سر المطلق، أمام كسر دوري يبدو له الكلمة الأخيرة في اللغز العالمي! بعد أن نطق مثل هيراقليطس: لا يوجد شيء، كل شيء يصبح، يقول لنا: كل شيء يعود؛ وهو لا يرى التعارض، ولا يرى التناقض! كل شيء لا يصبح، إذا بقيت صيغة العودة المتطابقة، إذا كان قانون مجموعة العناصر هو نفسه دائماً، إذا كان المرء متأكداً من أن كل شيء سيعود عدداً لا حصر له من المرات في ترتيب ثابت. لا يصبح كل شيء، إذا كان لنهر هيراقليطس شاطئ يبقى وأمواجه تعود كما هي دائماً. قال هيراقليطس حزيناً: "لا يستحم المرء مرتين في نفس النهر"، وظن نيتشه أنه يعزيه بقوله: "إن المرء يستحم فيه ويغرق فيه مرات لا نهاية لها".

كان غويو أيضاً يتصور الحياة كقوة للتفوق على الذات باستمرار، لكنه استنتج، بشكل أكثر منطقية، أنه لا يمكن اعتبار أي مزيج أو شكل بمثابة حياة ملزمة تستنفد قوتها. "لا يمكن للمرء، كما يقول، أن يرى ويفهم بروتيوس (المنبع) في الحكاية بشكل ثابت أثناء النوم، صورة الموت؛ هكذا هو الحال مع الطبيعة: كل شكل هو بالنسبة لها مجرد نوم، وموت عابر، توقف في التدفق الأبدي وسيولة الحياة

المراوغة. إن الصيرورة هي في الأساس بلا شكل، والحياة بلا شكل. كل شكل، كل فرد، كل نوع لا يمثل إلا خدراً مؤقتاً في الحياة: نحن نفهم الطبيعة وندركها فقط تحت صورة الموت. بأي حق إذن يمكننا أن نحكم على الطبيعة والحياة بالعودة باستمرار إلى سجن نفسيهما في نفس الأشكال بدلاً من التغلب على نفسيهما دائماً"[11]؟".

يتفحص غويو، في كتابه لا دينية المستقبل (Irréligion de l'Avenir)، من جميع الجوانب المشكلة التي عذب نيتشه نفسه بها، في نفس الوقت وعلى نفس شواطئ البحر الأبيض المتوسط، بألم مأساوي. يقول غويو إن الفلاسفة، منذ هيراقليطس إلى سبنسر، لم يفصلوا قط بين فكرتي التطور والانحلال؛ أليسا مع ذلك "قابلين للفصل"؟ دعونا نلاحظ أنه حتى الآن لم يصل أي فرد، أو مجموعة من الأفراد، أو أي عالم إلى "الوعي الذاتي الكامل، إلى المعرفة الكاملة بحياته وقوانين هذه الحياة"؛ لذلك لا يمكننا أن نؤكد أو نثبت أن التحلل مرتبط بشكل أساسي وأبدي بالتطور من خلال قانون الوجود نفسه: قانون القوانين يبقى معنا. ولكي يتمكن المرء من فهمه ذات يوم، فسوف يحتاج إلى "حالة فكرية عالية بما يكفي للاندماج مع هذا القانون بالذات". ومن باب أولى لا يمكننا أن نؤكد أن الانحلال والتطور يبدآن دائماً من جديد بنفس الطريقة ووفقاً لنفس القانون الدائري. ويعود غويو إلى الفكرة التي سبق أن عبر عنها بشكل شعري في كتابه أشعار فيلسوف. "ربما يكون الاعتراض الأكثر خطورة على الأمل- وهو الاعتراض الذي لم يتم تسليط الضوء عليه بما فيه الكفاية حتى الآن والذي لم يثره السيد رينان نفسه في أحلامه المتفائلة في حواراته- هو أن الأبدية جزء من الآخر،

[11]- *Ainsi parla Zarathoustra*, trad. H. Albert, 309.

إنها نصف الحياة. إجهاض الجهد العالمي الذي لا يمكن أن يؤدي إلا إلى هذا العالم! كيف يمكن استعادة سبب للأمل في هاوية الزمن هذه التي تبدو وكأنها هاوية اليأس؟- يجيب غويو على نفسه أنه من بين لا نهائيتي المدة التي لدينا خلفنا وأمامنا، "واحدة فقط مرت عقيمة، على الأقل جزئياً. حتى لو افترضنا الإجهاض الكامل للعمل البشري والعمل الذي يتابعه معنا بلا شك عدد لا نهائي من "الإخوة من خارج الأرض"، فسوف تظل هناك دائماً من الناحية الرياضية للكون "فرصة واحدة على الأقل للنجاح؛ ويكفي أن التشاؤم لا ينتصر في العقل البشري أبداً. مثل نيتشه، يحب غويو أن يتذكر استعارة أفلاطون حول رميات النرد التي يتم لعبها في الكون؛ ويضيف أن رميات النرد هذه لم تنتج حتى الآن سوى عوالم فانية وحضارات متعثرة باستمرار". لكن حساب الاحتمالات "يبين أنه لا يمكن للمرء، حتى بعد عدد لا نهائي من التحركات، التنبؤ بنتيجة النقلة التي يتم لعبها في الوقت الحالي أو التي سيتم لعبها غداً. من الغريب أن نرى غويو، قبل نيتشه، يعتمد على حساب الاحتمالات، ولكن بينما يستنتج نيتشه العود الأبدي، يؤكد غويو أن الاحتمالات تنطوي دائماً على احتمالات جديدة.

وفي الحقيقة، كلا الفرضيتين غير قابلتين للإثبات علمياً. عندما نحاول، كما يقول غويو، أن نتخيل الأشكال العليا للحياة والوجود، لا يمكننا أن نستنتج شيئاً من العناصر المعروفة لنا، لأن هذه العناصر محدودة العدد، علاوة على ذلك، غير معروفة بشكل كامل. لذلك يمكن أن توجد كائنات متفوقة علينا بلا حدود. "إن شهادتنا على وجود مثل هذه الكائنات ليس لها قيمة أكبر من شهادة زهرة ثلج من المناطق القطبية، أو طحالب من جبال الهيمالايا، أو أعشاب بحرية من أعماق المحيط الهادئ، والتي من شأنها أن تعلن أن الأرض خالية

من كائنات ذكية حقاً. لأنها لم تلتقطها يد إنسان قط[12]". هكذا أجاب الفيلسوف شاعر لا دينية المستقبل[13] مقدماً على الشاعر فيلسوف زرادشت. إنه يعطيه، ويعطينا جميعاً الدرس الأسمى في الحكمة، قائلاً: "الفكر شيء فريد من نوعه، لا مثيل له، ولا يمكن تفسيره على الإطلاق، ويظل أساسه إلى الأبد غير قابل للوصول إلى الصيغ العلمية، وفوق كل شيء الرياضيات، وبالتالي منفتحاً إلى الأبد للفرضيات الميتافيزيقية. مثلما أن الوجود هو الجنس الأسمى العظيم، الجنس العام، الذي يشمل جميع أنواع الموضوع، كذلك فإن الوعي هو الجنس الأسمى العظيم الذي يغلف ويحتوي على جميع أنواع الذاتي؛ لذلك لن نتمكن أبداً من الإجابة بشكل كامل على هذين السؤالين: ما هو الوجود؟ ما هو الوعي؟ ولا، بهذه الحقيقة بالذات، على هذا السؤال الثالث الذي يفترض حل السؤالين الآخرين: "هل سيكون الوعي؟". ولسبب أكثر من ذلك، لم يتمكن نيتشه من إثبات أن الوعي سيولد من جديد ويموت دائماً بنفس الأشكال، وأن الوجود هو إرادة بسيطة للسيطرة تنتهي بالهزيمة دائماً، ثم بدء نفس الصراع مرة أخرى بنفس المغامرات من أجل التعرض لنفس الهزيمة. فبدلاً من الاعتراف بمد وجزر أبدي، من المنطقي أكثر الاعتراف بحركة أبدية إلى الأمام، من خلال هذه المد والجزر التي هي الحياة ذاتها. "إن أعلى طموحاتنا، التي تبدو على وجه التحديد الأكثر عبثاً، هي مثل الأمواج التي، بعد أن تمكنت من الوصول إلينا، ستذهب أبعد منا، وربما، من خلال اجتماعها وتضخيمها، ستهز العالم. ومن خلال الأمواج المحتضرة، يتمكن

12- يميل الكيميائيون اليوم أيضاً إلى اعتبار الأنواع الكيميائية وما يسمى بالعناصر غير ثابتة، وقابلة للتحويل.

13 - *L'Irréligion de l'avenir*, p. 458.

البحر من تشكيل شاطئه، ورسم السرير الهائل حيث يتحرك"[14].

المستقبل، كما يختتم غويو بحكمة غريبة عن نيتشه، لا يتحدد بالكامل بالماضي المعروف لنا. إن المستقبل والماضي في علاقة متبادلة، ولا يمكن للمرء أن يعرف أحدهما بشكل مطلق من دون الآخر، وبالتالي لا يستطيع أن يخمن أحدهما بالآخر". نعتقد أن هذا بالنسبة لأي فيلسوف لديه إحساس بحدود معرفتنا، هو الكلمة الأخيرة في هذا السؤال. على العكس من ذلك، فإن دائرة نيتشه الأبدية ليست سوى لعبة رياضية، لا يمكنها إلا أن تفلت من أعماق الواقع. ومرة أخرى، كان على نيتشه أن يفهم هذا بنفسه، لأنه يعترف (مثل غويو، علاوة على ذلك) بأن الرياضيات عبارة عن غلاف بسيط تحيط شبكته بالوجود من دون اختراقه.

في نهاية المطاف، اختُزل نيتشه في نقيضين أساسيين. الأول ينفجر بين مفهومه عن الحياة التي تتقدم دائماً إلى الأمام ومفهومه عن الدَوس الشامل. والثاني ينفجر بين شكوكه فيما يتعلق بالقوانين الرياضية وإيمانه الأعمى بدائرة بوبيليوس التي تتبعها الرياضيات. ألا ينتهي به الأمر إلى تأليه هذه الحلقة المفرغة بنفسه، قائلاً: "Circulus vitiosus، Deus؟" (حلقة مفرغة يا إلهي).

---

14 -*Ibid.*, p. 447.

٧

لقد رأينا العقيدة العليا والمتناقضة التي أعلنها زرادشت للعالم. ويبقى لنا أن نبحث عما هي التلقينات المتعاقبة التي يمكن للإنسان أن يشارك بها في أسرار الديانة الوثنية الجديدة. بإعطاء اسم جديد لمفهوم قديم جداً (والذي عبر عنه شيلر، من بين آخرين، الذي كان نيتشه يحتقره بشدة، قبل شوبنهاور نفسه)، أطلق نيتشه على أبولونيان اسم التأمل الجمالي للعالم، والدرجة الأولى من التنشئة الدينية. يقول عابد الجمال للعالم وللحياة: "صورتك جميلة، شكلك جميل،- عندما يتم التأمل فيك من مكان مرتفع ومن بعيد بدرجة كافية بحيث تضيع الآلام والبؤس في الكل:- لذلك أريد أن أتأملك وأعجب بك. إن العالم غير المفهوم عقلانياً ليس أقل جمالاً من الناحية الجمالية. لقد مثّل رينان أيضاً الكون بالفعل كمشهد هائل يقدم للمشاهد الهاوي أكثر المشاهد تنوعًا، حيث سيكون حريصاً على عدم تغيير أي شيء. نيرون يصنع مثل هذا الشكل الجميل هناك في مكانه! بعد رينان، يدعونا نيتشه إلى التأمل في العالم باعتباره "دراما متنوعة وغنية"- حيث تبدأ الحلقات نفسها دائماً مراراً وتكراراً! يبدو له الشعور بالجمال مبرراً كافياً للوجود. يجب على الإنسان الخارق أن يعيش مثل شخص أبولوني، ليحلم ويسعد نفسه بحلمه.

لسوء الحظ، فإن حلم الحياة غالباً ما يكون بمثابة كابوس، بحيث لا يكون التبرير الأبولوني سوى وهم يرفض أي شخص يفكر ويعاني الانغماس فيه. هذه المبادرة الأولى في الألغاز هو مجرد شرك. نيتشه نفسه يقدم لنا ثانيةً، لا يزال يسميها باسم جديد، على الرغم أنه ليس جديداً: الثمالة الديونيسي. لقد ميز شوبنهاور

الحالة الفنية للروح عن الحالة الميتافيزيقية. بالنسبة إلى الفنان، العالم عبارة عن مجموعة من "الأفكار" المشابهة لأفكار أفلاطون، والتي تتحقق في الأفراد وتعطيهم شكلهم الخاص؛ بالنسبة للميتافيزيقيين، وراء الأفكار والأشكال، وراء كل المظاهر، هناك نفس الحقيقة، وهي "الإرادة الأولية والكونية والأبدية". يعترف شوبنهاور بأننا نستطيع أن ندرك داخل أنفسنا هويتنا الراديكالية مع جميع الكائنات، وبالتالي يمكننا أن نمزق حجاب الوهم الفردي ونعيش في الآخرين: أنت أنا. ويعترف نيتشه بدوره بهذه القدرة على إدراك كل شيء بإرادته. ولكن، أضاف شوبنهاور، عندما يكتسب المرء وعي البؤس العالمي، لا يمكنه إلا أن يشعر بالشفقة اللامتناهية على هذا العالم والرغبة اللامتناهية في تدميره. على العكس من ذلك، يريد نيتشه إقناعنا بتجربة الثمالة اللانهائية، المماثلة للسكر الباخوسي؛ وهذه هي الحالة التي يصفها تحت المسمى الديونيسي. وهكذا، فإن الشعور المأساوي والمتشائم بالوجود ينجح عند نيتشه، الشعور المتحمس والمتفائل، من دون أن يتغير المفهوم الأساسي لإرادة الحياة. وبعيداً عن ذلك، فإن إرادة الحياة عند نيتشه أكثر عبثاً منها عند شوبنهاور، حيث يتم تصورها كدائرة أبدية حيث لا يوجد شيء يمكن تغييره، ولا يوجد بعدها ما يمكن الإيمان به، أو الأمل، أو الحب، أو الرغبة.

نيتشه، الذي يعتقد أنه أكثر تفاؤلاً من شوبنهاور، أليس منغمساً في تشاؤم أعمق؟ شوبنهاور، فوق آلام هذا العالم، ارتقى بالنيرفانا مع البوذيين. لكنه كان حريصاً على إضافة أنه "إذا تمّ تعريف النيرفانا على أنها عدم الوجود، فهذا لا يعني شيئاً، باستثناء أن هذا العالم (أو سانسارا) لا يحتوي على أي عنصر محدد يمكن أن يخدم في تعريف أو بناء النيرفانا". وبالتالي، فإن هذا العدم بالنسبة لنا ليس العدم

المطلق بأي حال من الأحوال؛ يمكن له أن يكون، على العكس من ذلك، الكائن الحقيقي. يقول شوبنهاور في العبارة الشهيرة التي ينهي بها كتابه: "إننا ندرك بسهولة أن ما يبقى بعد الإلغاء الكامل للإرادة ليس شيئاً على الإطلاق بالنسبة لأولئك الذين مازالوا مملوئين بإرادة الحياة. ولكن بالنسبة لأولئك الذين حرموا من الإرادة، ما هو عالمنا، هذا العالم الحقيقي بشموسه ودرب التبانة؟ لا شيء". ولذلك فإن إرادة الحياة في هذا العالم هي التي يجب، وفقاً لـ شوبنهاور، أن تُباد لصالح نمط أعلى من الوجود، والذي لا يمكننا تعريفه أو بناءه، ولكنه بعيداً عن كونه العدم، فهو بلا شك امتلاء الوجود... عند حدود الطبيعة والإنسانية، خارج هذا العالم الذي يصرح وحده بالتشاؤم تجاهه، جعل شوبنهاور الأمل في التحرر يلمع، والتحرر الذي لم يكن سلبياً، بل إيجابياً. على العكس من ذلك، لم يلاحظ نيتشه أنه يتركنا من دون أدنى أمل في الخلاص. "التشاؤم، ويعترض بقوة على شوبنهاور، هو مستحيل عملياً ولا يمكن أن يكون منطقياً. لا يمكن أن يكون عدم الوجود هو الهدف". كان بإمكان شوبنهاور أن يجيب: قد يكون عدم وجود عالم محكوم عليه بالألم والشر هدفاً؛ لأن عدم وجود هذا العالم يمكن أن ينتج كائناً حقيقياً، ليس لدينا أي تمثيل له، وهذا صحيح، وبالتالي لا يمكننا تأكيده، ولكن لا يمكننا إنكاره أيضاً. أنت، على العكس من ذلك، لا تريد إنكار الحياة كما هي في عالم تمثيلاتنا، وهو أيضاً عالم معاناتنا؛ تريد أن تؤكد أن الحياة متطابقة مع كونها نفسها؛ لكن ما يسمى بكيانك ما هو إلا صيرورة مجنونة، ومذهولة، وشعثاء، وسباق نحو الهاوية، حيث بدلاً من الوصول إلى لا شيء، يهرب منك كل شيء، وحيث، بدلاً من التقدم، تتحول إلى ما لا نهاية مثل العبيد القدماء الذين يدفعون حجر رحاهم؛ إن ما يسمى بكيانك هو الهوية الأبدية والعبثية

والفارغة للوجود واللاوجود في الصيرورة، حيث لم ير هيجل سوى أدنى درجة من الديالكتيك، ونسيان الوجود بالكاد يخرج من ظلمة العدم المطلق.

على الرغم من ازدرائك لـ "السبب الصغير"، لن يوافق سببك الصغير ولا الكبير نفسه على قول نعم للحياة، إذا كان لكل شيء نتيجة: لا. ولا يجوز ذلك في الحقيقة إلا إذا كان تحت تأثير منشط أو مخدر. لكن مثل هذه الثمالة لن تستمر مدى الحياة. هناك آلام في الروح توقظ وتصحو حتى زرادشت. كان سيفقد إلى الأبد كل عقله العظيم، وحتى كل قلبه الكبير، ليبتهج بالهروب الأبدي من كل شيء، وبالغرور الأبدي لكل جهد، وبالهزيمة الأبدية لكل حب. أمام جثث أولئك الذين نحبهم والذين، بجمال أرواحهم وسمو فكرهم ووداعة قلوبهم، كانوا يستحقون أن يكونوا خالدين، أي عقل سليم وأي قلب سليم سيختبر نشوة "الفناء المبهجة" وإرادة أن يعزّي نفسه بفكر التدفق بلا حدود؟ ويحكم العودة الأبدية تقول إن ما فقدته سيحيا مرة أخرى، وكذلك أنت؛ عدد لا نهائي من المرات ستحب، وعدد لا نهائي من المرات سترى ما تحبه يباد! هذا هو اللغز الجديد المقترح لقانوننا؛ وستؤمن أن ظهور هذا الخداع الأبدي سيفرق البشرية في الثمالة! سيكون Ixion[15] أكثر سعادة عندما يعلم أن العجلة ستدور دائماً؛ سوف يزداد جنون الـ Danaïdes[16] من الفرح لأنها ستعلم أن الماء لن يملأ الهاوية أبداً! سوف يسكر سيزيف عندما يرى صخرته تسقط دائماً على رأسه! سيجد الجحيم عزاءه في

[15]- في الأساطير اليونانية، إكسيون (في اليونانية القديمة Ἰξίων / إكسيون)، ابن أنطون وبريميل (أو ليونتوس وفقًا لهيجين، أو فليجياس وفقًا للسكولائيين)- المترجم

[16]- الدانيات (باليونانية القديمة Δαναΐδες /Danaídes) هن، في الأساطير اليونانية، البنات الخمسين للملك دانوس- المترجم

فكرة أنه أبدي! ولعلك تبشرنا بـ "تأكيد الحياة، حتى في أغرب مشاكلها وأصعبها؛ إرادة الحياة، تبتهج بتضحية أسمى أنواعنا من أجل طابعها الذي لا ينضب". سيكون هذا مفهوماً، إذا كنا متأكدين بالفعل من أن الحياة ستنتج دائماً الأفضل، وسوف تتفوق على نفسها حقاً، ولن تكون أبداً سجينة في أشكال الحاضر، وستقود كل الأشياء في تقدم لا نهاية له. لكنك علمتنا، على عكس غويو، أن تشابكات الحياة محدودة وقابلة للاستهلاك، وبمجرد استنفادها، ليس لديها أي مورد آخر سوى البدء من جديد بنفس الترتيب وبسط نفس الأبجدية من البداية. نفس العناصر من الهيدروجين إلى الهيليوم. لقد حرمتنا من كل أسباب الحياة، وتريد منا أن نحب الحياة!

صيغتي لعظمة الإنسان، كما كتب نيتشه في مذكراته عام 1888، هي حب القدر (amor fati)؛ عدم الرغبة في تغيير أي حقيقة في الماضي، في المستقبل، إلى الأبد؛ ليس فقط دعم الضرورة، ناهيك عن إخفائها- فكل المثالية كذبة في وجه الضرورة- ولكن أن نحبها". بهذه الطريقة يهتف نيتشه، مثل الرواقي: أيها العالم، أريد ما تريد"؛ يا أصبحت، أريد أن أصبح ما سأكون عليه برغم أنني لا أرغب في ذلك!- ولكن لماذا هذه الموافقة على زوبعة الوجود الأبدية، إذا لم يُنظر إلى الوجود على أنه خير، أو منتج أو قادر على إنتاج المزيد من الفكر، والمزيد من القوة، والمزيد من الخير، وأخيراً، المزيد من السعادة؟ لقد رفض نيتشه كل غائية للطبيعة، سواء كانت متعالية أو جوهرية؛ إنه لا يرى في كل مكان سوى المد والجزر وهو يدفع المد، وفي ذروة هذه العاصفة التي لا هدف لها والتي أرعبت غويو، يريد منا أن نحب الموجة التي تبتلعنا!

– لماذا؟– يجيب، أننا أنفسنا "جزء من القدر؛ نحن ننتمي إلى الكل، نحن موجودون في الكل"؛ شظايا الطبيعة، وإرادة الطبيعة هي قانوننا. بينما، الطبيعة تميل إلى الإنسان والإنسان الخارق كما إلى هدفها؛ ومن هنا حبنا لهذا الهدف. تميل الطبيعة أيضاً إلى إبادة الإنسان والإنسان الخارق نفسه مثل كل الآخرين؛ ومن هنا حبنا للفناء.– إن التحدث بهذه الطريقة يعني تجسيد الطبيعة، وجعلها إلهاً، ونسيان ما قلته بنفسك: أنه لا توجد وحدة في التدفق الكوني، ولا سبب، ولا نهاية. ما هي الطبيعة إذن؟ لا توجد طبيعة أكثر من الله. πάντα ρεῖ (كل شيء يتدفق)؛ عبادة الطبيعة لا معنى لها. إن عشق السيل العالمي الذي نتدحرج فيه لم يعد له وجود. حب القدر (Amor fati) صيغة فارغة. القدر لا يحتاج إلى حبي.

بعد أن تحدث عن السكر والحماس، اضطر نيتشه أخيراً، في مواجهة الكون الذي تصوره، إلى مناشدة شجاعتنا؛ وهو يفعل ذلك بلهجة بطولية.

"هناك شيء في داخلي أسميه الشجاعة: إنه الذي قتل في داخلي حتى الآن كل حركة مزاجية...

"لأن الشجاعة هي أفضل قاتل،– الشجاعة التي تهاجم: ففي كل هجوم هناك ضجة.

"لكن الإنسان هو أشجع حيوان؛ هكذا هزم كل الوحوش. على أصوات الضجة تغلب على كل الألم. لكن الألم البشري هو أعمق ألم.

"الشجاعة تقتل الدوار أيضاً على حافة الهاوية؛ وأين لا يكون الإنسان على حافة الهاوية؟ حتى مجرد النظر، أليس هو النظر إلى الهاوية؟

"الشجاعة خير القتلة؛ الشجاعة تقتل الشفقة أيضاً. والشفقة هي أعمق الهاوية. بقدر ما يرى الإنسان في الحياة بعمق، فإنه يرى في المعاناة.

"الشجاعة هي أفضل القتلة، الشجاعة التي تهاجم؛ فينتهي بها الأمر إلى قتل الموت، لأنها تقول: كيف؟ هل كانت هذه الحياة؟ دعنا نذهب! لنبدأ مجدداً!

"في مثل هذه الحكمة، هناك الكثير من الضجة. ومن له أذنان فليسمع!"

نعم، نعتقد أننا نسمع. هذه الشجاعة هي ضجة من نوع جديد، ضجة الاستسلام، والتي كان يتم التعبير عنها حتى الآن بالتنهد أكثر من صرخة الفرح. دعنا نذهب! دعونا نفعل ذلك مرة أخرى! دعونا نبدأ مرة أخرى بعدد لا نهائي من الأزمنة، وفي عدد لا نهائي من الأماكن؛ دعونا نكرر نفس المخاوف، ونفس الآمال، تليها نفس خيبات الأمل، ونفس الآلام، ونفس الحسرات في لحظة الوداع.

هناك كلمات رائعة لدى نيتشه تكشف مدى المرارة والمعاناة المأساوية والعظمة الأخلاقية التي كانت موجودة في ظل سكره الديونيسيسي المزعوم. ويقول: "إن أي مفكر عميق يخشى أن يُفهم أكثر من أن يُساء فهمه. وفي الحالة الأخيرة، قد يعاني غروره؛ في الحالة الأولى، ما يتألم هو قلبه، تعاطفه الذي يقول دائماً: "واحسرتاه! لماذا تريد أن يكون الطريق مؤلماً لك مثلي؟ نعم، لماذا تريد أن تعاني ما جعلتني أفكاري أعانيه؟ لماذا تريد التوصل إلى مثل هذه الاستنتاجات اليائسة مثل تلك المخبأة تحت تفاؤلي؟

لقد شكّل نيتشه في النهاية مفهوماً مضاداً للوجود والقوة المتأصلة فيه. لقد نسب إلى الوجود، مثل غويو، القدرة على وضع حدود لجميع الأشكال والذهاب إلى أبعد من ذلك؛ حتى أنه بدا

وكأنه ينسب إلى كونه، أو بالأحرى إلى "أن يصبح دائماً غير متجانس ومتغير"، شخصية عرضية غير محددة، من المستحيل حسابها، أو استنتاجها، أو التنبؤ بها. إن استنتاجاته الثابتة والمنطقية والهندسية تتعارض بشكل رسمي مع هذه المبادئ. ومن هنا سلسلة طويلة من التناقضات التي لم يتم حلها. هناك تناقض، هناك تناقض بين فكرة السببية الخام وفكرة وجود عالم له قيمة نهائية تجعله مقبولاً ومحبوباً من قبل الإنسان. التناقض بين القدرية المطلقة والجهد المبذول لإعطاء معنى للوجود. التناقض بين الوهم المطلق وبطولة الحياة العليا. التناقض بين تفعيل ما هو ضروري و"خلق قيم جديدة". التناقض بين إنكار أي نموذج مختلف عن الواقع ومثال الإنسان الخارق. التناقض بين نسبية الرياضيات، كما هو الحال في كل المعرفة، والهيمنة المطلقة للرياضيات في الكون؛ بين الظاهرة المطلقة وتأكيد القانون الثابت؛ بين الصيرورة الأبدية والعودة الأبدية. وأخيراً، التناقض بين العجز الجذري للوجود والرغبة الجذرية في السلطة التي، وفقاً لـ نيتشه، هي جوهر الحياة.

بين النقيضين اللذين اصطدم بهما نيتشه ضد بعضهما البعض، يختفي الحد الأوسط: أعني الفكرة التي يحكم بها الواقع على نفسه ويمضي قدماً من دون انتهاك قوانين الحتمية. يبشر نيتشه بازدرائه للذكاء؛ فهذا العابد للقوة لا يرى أن الفكرة بحدّ ذاتها قوة. وهو لا يرى أن ما يمكن أن "يحرف الكائن نحو هدف ما" هو فكرة الهدف. إذا تصورت نموذجاً مثالياً للإنسانية، أو، مثل نيتشه، للبشرية الفائقة، فإن هذه الفكرة تعمل كسبب فعال نهائي ومعروف. ولو أنني حتى أتصور فكرة الحرية باعتبارها خلاصاً من كل الدوافع السفلية ومن كل القوى السفلية التي تدفعني من الخارج، فإن هذه الفكرة تميل إلى أن تدرك في داخلي شيئاً من ذاتها تدريجياً. لقد تمسك

نيتشه بالقدر الجامد للمحمدي، من دون أن يفهم المرونة اللا محدودة للحتمية، بشرط أن تأخذ الحتمية شكل الحياة الذكية والمحبة. ولهذا رأيناه يتصور المومياء كعودة أبدية لنفس الأشياء، من دون أن نتساءل عمّا إذا كانت الحتمية نفسها لا تستطيع أن تحدد باستمرار قيما جديدة من خلال تصورها ومن خلال الرغبة فيها.

إن التناقض الذي يدور فيه نيتشه هو أعمق من ذلك حيث أنه هو نفسه يدعي أنه خالق القيم. فكيف سيخلقها إن لم يكن بالفكر الذي يتصور المثل الأعلى ويحققه بتصوره؟ بحكم قدريته، يعلن مراراً وتكراراً ما يسميه براءة الصيرورة"؛ وهو ينتقد الأخلاق لرغبتها في "غرس براءة الصيرورة هذه"، بدلاً من تركها مثل سيل عظيم لا يمكن لأي شيء أن يوقفه؛ ومع ذلك فهو يريد بدوره أن يصحح ويوجه الصيرورة بفرض إرادته عليها، التي لا تستطيع هي نفسها أن تفعلها دون أن تتصور فكرة ما تريد! ولذلك فإن هذا الواقعي المسعور جائع ومتعطش للمثل الأعلى؛ لكننا رأينا كيف أن القدرية الرياضية، بتكرارها اللانهائي لنفس الأشياء، تختزله إلى دور التنتالوس (Tantale)، في نفس الوقت الذي تختزل فيه الكون.

وبما أنه تأمل في مفكري اليونان إلى درجة أن يستعير منهم الأسطورة الفلكية للسنة العظيمة، كان بإمكان نيتشه أن يستعير منهم أيضاً فكرة سامية وأكثر إثماراً: فكرة التحقيق غير المحدود لجميع الاحتمالات، التي ألهمت أفلاطون أولاً. ثم الإسكندريون بشكل أفضل. ألم يفهم هؤلاء الأخيرون أن جميع أشكال الوجود، من أبسطها إلى أسماها، لا بد أن تخرج من بعضها البعض، لتستنفد نفسها في لا نهاية الزمان وفي لا نهاية الفضاء وفي لا نهاية الوجود؟ ومع ذلك، فإن الكلمة البشرية غير كافية للتعبير عما لا ينضب.

ومهما كان الأمر، فإن عالمنا، وفقاً لهذا التصور، محاط بعوالم لا متناهية تفيض عليه، ولا تستطيع أشكال فكرنا التعبير عن محتواها، وقد لمح باسكال هذه الفكرة عندما قال إن الفكر سيتعب من التصور وليس من طبيعة ما توفره الطبيعة. تصور سبينوزا بدوره الأنماط الممكنة للوجود على أنها لا نهائية ولا حصر لها، بحيث يكون الامتداد والفكر، وهما بيئتنا، مجرد اثنين من هذه المظاهر بين اللانهاية. منذ ذلك الحين فصاعداً، لن يكون عقم طبيعتنا إلا ظاهراً، وعلى أي حال، لن يكون سوى عقم عالم صغير، والذي، على الرغم من مجراته، هو بالنسبة إلى محيط الوجود، قطرة ماء وذرة. ملجأ الأمل الوحيد هو فكرة اللانهاية! من خلال الحدّ من خصوبة الوجود، من خلال الحدّ من هذه القوة التي تكون رغبتها محايثة في الوجود، من خلال تطويق الصيرورة المراوغة داخل الأطر الهندسية لفترات متشابهة باستمرار، من خلال جعل الحياة ساعة رملية دائمة الدوران، فإن نيتشه يظل مشلولاً في فكرة المتناهي. هو الذي أراد أن يسمو إلى ما هو أبعد من الخير والشر، لماذا لم يرتقِ إلى ما هو أبعد من الرياضيات والفيزياء، ليس ليؤكد الفقر المدقع، بل لثراء الحياة اللا متناهي؟ وبهذا السعر فقط كان بإمكانه تجربة ثمالة أولئك الذين بدأوا في إلقاء نظرة على الأسرار العليا. إن الاستسلام للعودة الدائمة للأشياء، إلى eadem sunt omnia semper (الذي يجب أن نضيف إليه في كل مكان)، ليس سوى استسلام قسري للرواقيين أو الأبيقوريين لنظام الطبيعة. إنها ليست ثورة الروح العظيمة والحرة ضد الطبيعة، وليست الحرب الكبرى من أجل الجديد إلى الأمام. لقد تمسك نيتشه بالمذهب الطبيعي الوثني، دون أن يتمكن حتى من فهم معنى المسيحية أو معنى المثالية المعاصرة. إن

الدوافع السامية لقصائده الغنائية لا تنجح في إخفاء تناقضات فكره الفلسفي وعجزه. يقول لنا: اتكئ على بئرك لترى نجوم السماء العظيمة في القاع. هو نفسه، طوال حياته كلها، انحنى على نفسه بهذه الطريقة، لكنه أصيب بالدوار، واضطربت نجوم السماء العظيمة في عينيه في ليلة هائلة.

II

أفكار نيتشه الاجتماعية

يتهم نيتشه المجتمع الأوروبي بالعدمية، ويعني بالعدمية انهيار أو إلغاء إرادة السلطة، أساس الحياة الفردية والاجتماعية. ووفقاً له، فإن المجتمع "الحديث" برمته هو ضحية خطأ جسيم، وهو سبب الانحطاط الكوني. يفشل المجتمع عندما يتخذ مبادئه العملية قيماً مضادة للحياة، أي تتعارض مع معنى الحياة ذاته، وهو البحث الذي لا يشبع عن السلطة والسيطرة. إن المرض الحديث، شرّ المتحضرين، بحسب نيتشه، هو وهن الإرادة وعجزها. قال القديس أغسطينوس: أحبب وافعل ما تريد. زرادشت يخبرنا أن نريد وأن نفعل ما نريد[١٧].

واحسرتاه! لماذا لا تفهم كلامي؟ افعل دائماً ما تريد، ولكن كن أول من يستطيع أن يريد!

أحبوا قريبكم دائماً كأنفسكم، ولكن كونوا أولاً من الذين يحبون أنفسهم.

من الذين يحبون بعضهم البعض بحب عظيم، بازدراء عظيم!

هكذا تكلم زرادشت، الكافر.

ولكن لماذا أتكلم عندما لا يملك أحد أذنيّ؟ مازال الوقت مبكراً جداً بساعة بالنسبة لي.

إن الخطأ الكبير للمجتمع الحديث، الذي جعل الدين "انحطاطاً"، والأخلاق "انحطاطاً"، والفلسفة "انحطاطاً"، هو أنه استبدل الاستخدام الطبيعي للقوة بالبحث عن عدالة مصطنعة وزائفة للجميع، السعادة للجميع. دعونا نتبع نيتشه في نقده لفكرة العدالة في مختلف أشكال الديمقراطية، والاشتراكية، والفوضوية، والمسيحية، المنحطة على حد سواء.

17- Ainsi parlait Zarathoustra, trad. Albert, p. 243.

I

نتذكر ذلك المتوحش الذي حاول أحد المبشرين إقناعه بعدم أكل زوجته، فأجاب: "ألا تأكل السمكة الكبيرة السمكة الصغيرة، أليس القوي يأكل الضعيف؟" لقد استحضر نفس درس "الطبيعة" الذي استعان به نيتشه. "فقط منذ تأسيس القانون يمكن أن تكون هناك مسألة العدالة أو الظلم... الحديث عن العدالة أو الظلم في حدّ ذاته ليس له معنى؛ من الواضح أن المخالفة، أو الانتهاك، أو الحرمان، أو التدمير في حدّ ذاته لا يمكن أن يكون شيئاً غير عادل، لأن الحياة تستمر بشكل أساسي، أي في وظائفها الأولية، عن طريق المخالفة، أو الانتهاك، أو الحرمان، أو التدمير، ولا يمكن للمرء أن يتصور أنها تسير بطريقة أخرى". وهكذا تم إرجاع كاليكليس (Calliclès) وداروين إلى الوحدة. ولكن قد يسأل سائل: إذا كان العدل مفقوداً في النبات وفي الحيوانات الدنيا، فهل ذلك سبب لاعتباره في الإنسان بمثابة تعسف وقانوني بحت؟ يجيبنا نيتشه، مع هيبياس (Hippias) العجوز، أنه عبر التاريخ يمكننا تحديد ما هو صواب؛ ويعلمنا مع ثراسيماكوس (Thrasymaque) أنه لا يوجد حق طبيعي آخر غير القوة. إنه لا يلمح حتى ما ألمح إليه كاليكليس سابقاً: أن القوانين الوضعية لا يمكن تأسيسها إلا من خلال وجود قوة من جانبها، ويترتب على ذلك أن القوانين الإيجابية هي على وجه التحديد هي القوانين الحقيقية. وأن القوة المتفوقة الحقيقية هي بالتالي القوة الاجتماعية، وليست القوة الفردية؛ وأن هذه القوة الاجتماعية في النهاية هي قوة اتحاد وتعاون أكثر من قوة الصراع والنضال.

الأصالة، عند نيتشه، تبدأ دائماً تقريباً بالانحراف المرضي للأفكار المبتذلة؛ هنا مثال آخر. إن "كل علاقة قانونية يمكن اختزالها إلى الأشكال البدائية للشراء، والبيع، والتبادل، والاتجار في كلمة واحدة" هي فكرة أصبحت شائعة في ألمانيا منذ كارل ماركس، وهي فكرة ليست أقل خطأ من أي مكان آخر: يسارع نيتشه إلى جعلها فكرة خاصة به. أن "التعويض المعادل" الذي نجح في الحلول مكان العدالة الهمجية، ذهب إلى حدّ تصور التكافؤ بين الضرر والمعاناة التي لحقت بمرتكب الضرر، لا تزال فكرة لا تقل تفاهة لأي شخص قرأ قانون عدالة الجداول الإثني عشر أو الذي يعرف شايلوك شكسبير: كان للدائن تفويض بقطع قطعة من لحم المدين مقابل الدين: (si plus minusve secuerint, ne fraude est) (إذا كان زائد ناقص وآمن، فلا يوجد احتيال في هذا). كيف يمكن النجاح في تحريف هذه العدالة المنحرفة بالفعل بشكل أكبر؟ وسوف ينجح نيتشه في ذلك من خلال تقديمه كتطبيق جيد لمذهبه حول "حق الأسياد". إن إرضاء "السيد" الممنوح للدائن كتعويض عن خسارته هو ذلك الفرح الأسمى الذي يتمثل في "ممارسة سلطته في أمان كامل على كونه عاجزاً"، إنها "الإرادة لفعل الشر من أجل متعة الشخص". (يؤكد نيتشه نفسه هذه الكلمات)، إنها في النهاية "متعة الاستبداد". وهذه المتعة، في رأيه، تكون أكثر حيوية، حيث أن مرتبة الدائن على المستوى الاجتماعي أدنى، لأن حالته أكثر تواضعاً؛ لأنه عندئذ يكون الشعور بالتفوق أعظم عند الدائن، فإن قطعة اللحم "تبدو له ألذ وتعطيه مذاقاً لمرتبة اجتماعية أعلى". بفضل العقوبة المفروضة على المدين، "يشارك الدائن في حقوق السادة"، وينتهي به الأمر أيضاً "بتذوق الشعور النبيل المتمثل في القدرة على احتقار

وإساءة معاملة كائن ما باعتباره شيئاً أدنى منه. هذا هو نذير الـ سوبرمان. "لذلك فإن التعويض يتكون من التنازل والحق في القسوة. هكذا يؤدي أمر مألوف في تاريخ القانون، في عقل مضطرب، إلى نوع من السادية القانونية والفلسفية. يقول نيتشه: "إن رؤية المعاناة أمر جيد، وجعل الآخر يعاني، يشعرك بأكثر من ذلك، ها هي ذا حقيقة، ولكنها حقيقة إنسانية قديمة وقوية، وإنسانية للغاية".

نرى أن نيتشه لا يقبل النظرية العزيزة على المدرسة الإنجليزية، والتي تجعل العدالة تنبثق من غريزة الانتقام المتحولة؛ لكن هذا فقط لأن غريزة الانتقام، حسب رأيه، لا تزال مجرد عاطفة "رد فعل"، جواب، رد، صدمة في المقابل. ما يريده هو[18] الصدمة الأولية والعدوان والشعور العفوي. إن العدالة الاجتماعية ليست سوى تراجع في القوة، ومورد للضعفاء، وخدعة للدفاع عن أنفسهم ضد أولئك الذين تنتمي إليهم الهيمنة بطبيعتهم.

"نحن مخطئون بشدة، يصيح نيتشه، فيما يتعلق بالوحوش المفترسة والإنسان المفترس (على سبيل المثال، عند سيزار بورجيا)، نحن مخطئون بشأن الطبيعة طالما أننا نبحث عن مزاج مريض أو حتى جحيم فطري في قاع كل هذه المظاهر الوحشية والاستوائية، فالأكثر صحة هو ما هو موجود؛ كما فعل الأخلاقيون حتى الآن. هل يضمر الأخلاقيون كراهية للغابات العذراء والمناطق الاستوائية؟ هل يجب تشويه سمعة إنسان المناطق الاستوائية بأي ثمن، إما باعتباره مرض الإنسان وانحطاطه، أو باعتباره جحيمه وتعذيبه؟ لماذا إذن؟ لصالح المناطق المعتدلة؟ لمصلحة البشر المعتدلين، الأخلاقيين، الحقيرين؟ هذا لفصل: "الأخلاق كشكل من أشكال الحياء"[19].- كان

---

[18] - *Généalogie de la morale*, trad. franc. p. 85.
[19]- *Par-delà le bien et le mal*, § 195.

بإمكان نيتشه أن يضيف فصلاً آخر: الأخلاق والعدالة كشكل من أشكال الشجاعة وضبط النفس. إذا اكتسب الرجل ذو المزاج الاستوائي ما يكفي من العقل والثبات لمقاومة عواطفه الوحشية، فهل ستعتبره خجولاً؟ هل كان أريستيدس (Aristide) وريجولوس (Régulus) والقديس بولس خجولين؟ يمكن للمرء أيضاً أن يتساءل ما الذي كان استوائياً وبطولياً جداً في بورجيا، وحش معذب، سامّ، مسمم، وأكثر مكراً وكذباً من كونه عنيفاً. كان سمّه جاهزاً معه في كل مكان، ومعه جلاده أيضاً. لكن هذا التسمم، والفجور الذي يزعج، ويفقر، ويجفف الحياة في منابعها، ويتسبب في موت الإنسان قبل أن يبلغ سنه في العفن، وأن كل هذا هو الأكثر "صحة" للإنسان، يمكننا أن نسمح لأنفسنا ببعض الشكوك حول هذا الموضوع. الحياة المترفة ليست دائماً الحياة الفاخرة. إن الأخلاقيين، بطبيعة الحال، ليس لديهم "كراهية تجاه الغابة العذراء"، لكن الرجل العاقل في القرن العشرين، الذي يجرد من كل معنى للعدالة، واحترام نفسه والآخرين، يجب أن يجعل نفسه مشابهاً لآكل لحوم البشر في الغابة العذراء، لا يزال من الممكن الشك في ذلك. علاوة على ذلك، فإن نيتشه نفسه لم يعترف بذلك؛ فلماذا إذن هذه المبالغات الملتهبة تكريماً للجريمة؟

II

إن فكرة العدالة الاجتماعية تغلف فكرة الإنصاف، التي تغلف في حدّ ذاتها فكرة المساواة، أساس الديمقراطية. تهدف العدالة إلى استعادة توازن معين بين القوي والضعيف داخل المجتمع البشري. ومن ثم فإن القانون الطبيعي لانتصار الأقوى يتم تعويضه بالمبدأ الديمقراطي المتمثل في المساواة في الحقوق بين الضعيف والأقوى. مبدأ المساواة! لم يعد هناك سمّ أكثر سمّاً بالنسبة إلى نيتشه. قد يبدو أن مبدأ الثورة هذا يتم التبشير به "من خلال العدالة الشخصية"، لكنه "موت كل عدالة".

يشبه زرادشت دعاة المساواة بالعناكب التي تريد أن تحاصر كل شيء في فخاخها:

أنظر! هنا مخبأ الرتيلاء! ها هي الشبكة التي نسجتها: المس هذا النسيج حتى يبدأ في الارتعاش.

أصدقائي، لا أريد أن أخلط وأرتبك.

هناك من يبشر بمذهبي في الحياة، لكنهم في نفس الوقت دعاة المساواة والرتيلاء...

مع دعاة المساواة هؤلاء لا أريد أن أختلط أو أرتبك. لأن العدالة تقول لي:- البشر ليسوا متساوين.

ولا ينبغي أن يكونوا كذلك! ماذا سيكون حبي للسوبرمان لو تحدثت بخلاف ذلك.

على ألف جسر وعلى ألف طريق يجب على البشر الإسراع نحو المستقبل، وسيكون من الضروري أن نضع بينهم دائماً المزيد من الحروب وعدم المساواة؛ هكذا يتحدث معي حبي الكبير.

ثم يقارن زرادشت المجتمع البشري بشكل رائع بالمعبد القديم الذي يرى أنقاضه والذي لا يرتفع نحو السماء إلا بفضل تنوع أعمدته والقوى المتعارضة لأقواسه.

في الحقيقة، إن من رفع أفكاره، صرحاً من حجر، إلى العلا، عرف سرّ الحياة، كأحكم الجميع!

في الجمال نفسه لا يزال هناك صراع وعدم مساواة وحرب على السلطة والتفوق، هذا ما يعلمنا إياه هنا في الرمز الأكثر سطوعاً.

كم تتكسر الأقبية والأقواس هنا في النضال! كيف يتقاتل النور والظل في الجهد الإلهي!

لذا، آمنين وجميلين، فلنكن أعداء أيضاً يا أصدقائي! دعونا نجاهد إلهياً ضد بعضنا البعض!

في زمن المساواة الذي نعيشه، وفقاً لـ نيتشه، يهيمن النفور على كل ما يأمر ويريد أن يأمر. إننا نشهد نوعاً من خصوصية الديمقراطيين؛ "الميسارشية (الفوضى) الحديثة (شيء همجي، اسم همجي)". ويميل هذا المرض شيئاً فشيئاً إلى التسلل قطرة قطرة حتى إلى العلوم الأكثر دقة والأكثر موضوعية على ما يبدو؛ يبدو أنه قد "جعل من نفسه سيداً لكل علم وظائف الأعضاء والبيولوجيا، وهذا على حسابهما، هل يجب أن أقول ذلك؟" بمعنى أننا استبعدنا مفهوماً أساسياً بالنسبة لهم: مفهوم النشاط. شاهد آل داروين وسبنسر بدلاً من ذلك! لقد أدخلوا، بطريقة ما، الروح الديمقراطية في العلوم الطبيعية، حيث طردوا كل مبادرات حقيقية.

تكيفوا، يقال لنا باستمرار، انحنوا، تفاعلوا بشكل متناسب مع الفعل من الخارج، اختفوا لصالح البيئة، امتصوا أنفسكم في الكل، هذا هو درس السلبية والجبن الذي تعطينا إياه المدرسة الإنجليزية، وفقاً لـ نيتشه. من الصراع نفسه، من هذا الصراع الذي أعلنه

هيراقليطس أباً لكل الأشياء، نصنع صراعاً بسيطاً من أجل الوجود، بينما الكائنات تناضل، في الحقيقة، من أجل السلطة، من أجل التفوق، من أجل السيطرة، وليس من أجل الوجود، ولا حتى من أجل أعظم رفاهية، ولكن من أجل المزيد من الرفاهية، أن تكون كل شيء وتملك كل شيء! لا توجد في الطبيعة أكثر مما توجد في الإنسانية الديمقراطية المثالية الحقيقية، إنها الأرستقراطية، بل إنها الملكية، إنها الطغيان: الجميع يود أن يقول: الكون هو أنا! - اسأل نفسك عن النوع الحقيقي للإنسان، حيوان النهب والفريسة، إنه ليس حتى لويس الرابع عشر، بل هذا المزيج المذهل من "اللا إنساني والإنسان الخارق" هو الذي كان عليه نابليون.

إن أحد مظاهر الروح الديمقراطية، إذا أردنا أن نصدق نيتشه، هو عبادة العلم. تأتي هذه العبادة من حقيقة أن العلم يظهر كحقيقة، أي كدين الكلمة، وكمنفعة، أي صناعة تهدف إلى سعادة أكبر عدد من الناس. إن نتيجة العلم، كما هو الحال مع كل شيء ديمقراطي، هي "استنزاف الطاقة". في جمهورية العلماء، كما في جمهورية الاشتراكيين، كل فرد ليس سوى عامل، موظف، عامل، بناء يساهم بحجره، صغيراً كان أم كبيراً، في صرح لن يحمل اسمه. يبدو العالم لـ نيتشه النقيض التام للشاعر أو الفيلسوف، أي للخالق. انظر، كما يقول، في تطور الناس، الأوقات التي يأتي فيها العالم إلى المقدمة؛ هذه هي فترات التعب، في كثير من الأحيان من الشفق، من الانخفاض. "إنها نهاية وفرة الطاقة، واليقين في الحياة، واليقين في المستقبل. سيادة لغة الماندرين (mandarins) لا تعني أي شيء جيد أبداً؛ لا يقل عن ظهور الديمقراطية، ومحاكم التحكيم التي حلت محل الحروب، وتحرير المرأة، ودين المعاناة الإنسانية وغيرها

من أعراض تراجع الطاقة الحيوية". إن الخصوم العلميين للأديان هـم أنفسـهم مجـرد "متـهالكين للعقـل". وتلـك "انتصـارات العـالم" الشهيرة!- أليس ميل الإنسان إلى الانكماش، وإرادته في جعل نفسه صغيراً، منذ كوبرنيكوس، في تقدم مستمر؟ واحسرتاه! لقد انتهى الأمر كله بإيمانه بكرامته، وبقيمته الفريدة التي لا تضاهى على مقياس الكائنات؛ لقد أصبح حيواناً، بلا استعارة، بلا قيود أو تحفظات، ذلك الذي كان، وفقاً لإيمانه القديم، إلهاً تقريباً. (ابن الله، الله صار إنساناً). منذ كوبرنيكوس، يبدو أن الإنسان كان في منحدر هابط... كل العلوم (وليس علم الفلك فقط، على تأثيرها المهين والمحبط الذي ترك لنا كنط عنه هذا الاعتراف الرائع: "إنه العلم يلغي أهميتي...") كل العلوم، الطبيعية أو غير الطبيعية،- هكذا أسمي نقد العقل في حد ذاته- يعمل اليوم على تدمير احترام الذات القديمة في الإنسان، كما لو أن هذا الاحترام لم يكن قط سوى نتاج غريب للغرور البشري"[20].

فالسياسة، مثلها مثل العلم، تحط من شأن الفرد لصالح الدولة. الدولة بالنسبة لـ نيتشه هي كلب منافق، الكلب الذي ينفث اللهب والدخان، ويتكلم بالعواء، ليجعله يعتقد أنه يتحدث عن أحشاء الأشياء. إن الدولة عبارة عن حماية مصطنعة للرجال السوقيين عديمي الفائدة في الأساس، والذين يسميهم نيتشه "الفائضون عن الحاجة". وينتهي الأمر بالشعب إلى جعل نفسه محبوباً تحت اسم الدولة.

---

[20]- *Généalogie de la morale*, p. 175.

انظر إلى هؤلاء الزائدين عن الحاجة! يسرقون أعمال المخترعين وكنوز الحكماء، ويسمون سرقتهم حضارة، ويصبح لهم كل شيء مرضاً وبؤساً!

انظر إلى هؤلاء الزائدين عن الحاجة! هم دائماً مرضى، يتقيؤون مرارتهم ويسمونها صحفاً. يلتهمون بعضهم البعض، ولا يستطيعون حتى هضم أنفسهم.

انظر إلى هؤلاء الزائدين عن الحاجة! يكتسبون الثروة ويصبحون أكثر فقراً. إنهم يريدون السلطة، وقبل كل شيء رافعة السلطة، الكثير من المال، هؤلاء الضعفاء!

أراهم يتسلقون، هذه القرود الذكية! يتسلقون فوق بعضهم البعض وبالتالي يجذبون بعضهم البعض إلى الوحل والهاوية.

كلهم يريدون الاقتراب من العرش. إنه جنونهم، وكأن السعادة على العرش؛ في كثير من الأحيان يكون الطين على العرش وغالباً ما يكون العرش أيضاً في الطين.

الوطن تحيز لأولئك الذين لديهم جرثومة الرجل الخارق، ليس لأنهم كونيون وإنسانيون- فهم يشعرون بالرعب من مثل هذا الهراء، "هذا فرنسي للغاية،"- ولكن لأنهم يحملون وطنهم الأم وأيضاً في المستقبل. من بين "الأوروبيين اليوم"، يدعي نيتشه مكاناً لنفسه بين أولئك الذين يطلقون على أنفسهم لقب المشردين"، وهو في نظره لقب "مميز ومشرف". لهؤلاء بشكل خاص يكرس حكمته السرية و"معرفته المبهجة". "كيف يمكننا أن نكون في المنزل في الوقت الحاضر!... الجليد الذي لا يزال صامداً حتى اليوم أصبح رقيقاً جداً: تهب رياح فاترة، ونحن المشردون شيء يكسر الجليد وحقائق أخرى رقيقة جداً... لا نحتفظ بأي شيء، لا نريد أن نعود إلى أي ماضٍ، فنحن لسنا أقل من الليبراليين، ولا نعمل من أجل التقدم؛

ولسنا في حاجة إلى أن نسد آذاننا حتى نصبح صُماً عن وعود المستقبل التي تطلقها صافرات الإنذار في الساحة العامة. ما يغنونه: "المساواة"، "الحرية"، "لا أسياد ولا خدم"، لا يغوينا. نحن لا نرى بأي حال من الأحوال أنه من المرغوب فيه أن يتم تأسيس حكم العدالة والوئام على الأرض (سيكون حكم الرداءة الأكثر تواضعاً وأسوأ الأنواع)؛ ولكننا نحب كل أولئك الذين مثلنا يتذوقون الخطر والحرب والمغامرة، الذين لا يقبلون المساومة ولا التسوية، ولا يسمحون لأنفسهم بأن يكونوا أسرى ولا يقصوا أجنحتهم: نحن نصنف أنفسنا بين الفاتحين"[21].

[21]- *Aurore*, p. 200.

III

إن إدانة العدالة، والمساواة، والعلم، والديمقراطية التي صنعت منهم آلهة، تستلزم بالضرورة إدانة جميع الإصلاحات الاجتماعية. نيتشه يكره الاشتراكية، لأن هذا النظام يعارض قانون الاستغلال الكوني. في الجسم الحي ماذا سيحدث لو توقف الرأس عن استغلال باقي أعضاء الجسم؟ كل وظيفة عضوية هي استعباد واندماج. تريد الجماعية أن تتمرد على القانون الذي يُخضع الضعيف للقوي؛ لكن "الكليشيهات الشيوعية التي تجعل جميع الإرادات متساوية" تستدعي مبدأ "عدو الحياة"، فهي عامل انحلال وتدمير[22].

الجديد الاجتماعي الذي يدعو إليه زرادشت هو العودة إلى الطبقات القديمة في الهند. الطبقة الأولى ستكون جمهور العمال، الذين سيتعلمون أخلاق العبيد، أي الاستسلام والخضوع والتواضع والعمل والزهد. الأخلاق والدين مفيدان للناس، وخاصة أخلاق الواجب، التي تأمر الناس بالطاعة، والدين المسيحي، الذي يعزّي المصابين، ويشفي المرضى ببلسم الوهم. عندما لا تستطيع "إجبار النجوم على الدوران حولك"، عليك أن تكتفي برتبة متواضعة من الأقمار الصناعية الصغيرة أو الأيروليت (نيزك جوي) وتدور حول نجم، حتى تتبدد في الدخان. ولكن فوق العمال، يرتفع المحاربون، الذين هم الوسطاء بين السادة والعبيد، بين الرجال الخارقين والبسطاء.

إذا لم تتمكن من أن تكون قديساً للمعرفة، فعلى الأقل كن محارباً لها. وهم أصحاب هذه القداسة وأسلافها...

---

22 - *Généalogie de la morale*, 2e dissertation, § 11.

لقد فعلت الحرب والشجاعة أشياء عظيمة أكثر من حب الجار.
إنها ليست شفقتك، بل شجاعتك هي التي أنقذت الضحايا حتى الآن.

الثورة هي نبل العبد. نرجو أن يكون نبلك الطاعة! وليكن أمرك نفسه طاعة!

المحارب الجيد يفضل أن تدين له بما أريد، وعليك أن تطلب ما تريد[23]!

فمن سيأمر إذن المحاربين أنفسهم، ومن خلالهم، الشعب؟ الحكماء، والكهنة الجدد، والرجال الخارقون، الذين، في هذا العالم حيث لا شيء له قيمة جوهرية، سيعرفون هم أنفسهم كيفية خلق القيم وفرضها على الآخرين. لكن هذه لن تكون، كما في أحلام رينان، طبقة من العلماء؛ بل سيكونون بالأحرى طبقة من الشعراء، بالمعنى الدقيق للكلمة، شعراء الحياة، وحدهم من يمنحون معنى للحياة، التي ليس لها في حدّ ذاتها أي هدف، وهي في حدّ ذاتها مجرد لعبة نرد عمياء. على طاولة الصدفة. سيكون هؤلاء الشعراء أيضاً كهنة، الكهنة الحقيقيون الوحيدون: سيكونون البراهمة. نحن هنا على ضفاف نهر الغانج.

المسألة الاجتماعية، هذه الكلمة تُخرج نيتشه عن طوره. عند السيد دي بسمارك نفسه، الذي اعترف بمسألة العمال، عند إمبراطور ألمانيا الجديد، الذي حاول حلها، رأى نيتشه ديمقراطيين من أسوأ الأنواع، ومنحطين سياسيين، واشتراكيين تائهين على العرش، أو على درجات العرش، وهم أنفسهم يعدون آلة القمع الإدارية الكبرى، التي ستضع الجماعية يديها عليها عاجلاً أو آجلاً:

23- *Zarathoustra*, p. 60.

احتكار التعليم، واحتكار السكك الحديدية، والمناجم، والتأمين الإلزامي، الخ، الخ. يقول: "إنه الغباء، أو بالأحرى، إنه انحطاط الغريزة (الذي نجده في أعماق كل غباء)، الذي يجعل هناك مسألة عمال. هناك أشياء معينة لا يُسأل عنها أحد: أولاً ضرورة الغريزة". يسأل نيتشه نفسه "ماذا نريد أن نفعل بالعامل الأوروبي بعد أن جعل من نفسه قضية؟". وهذا يعني أن يرمي المرء بنفسه طوعاً في هاوية لن يكون بمقدوره الهروب منها بعد الآن. "يجد العامل نفسه في وضع أفضل بكثير من أن يتساءل دائماً زيادة، ودائماً بمزيد من الوقاحة. "علاوة على ذلك، في النهاية، "لديه الرقم المناسب له". يشكو نيتشه من أننا يجب أن نتخلى تماماً عن الأمل في رؤية تطور نوع متواضع ومقتصد من الرجال، طبقة عاملة تتوافق مع نمط الصينيين. قال: "كان من الممكن أن يكون ذلك معقولاً، وكان سيستجيب ببساطة لضرورة". ما الذي حصلنا عليه؟ كل شيء ليقضي في جرثومته على حالة مثل هذه الحالة من الأشياء. "بفضل عدم التفكير الذي لا يغتفر، تم تدمير جراثيم الغرائز التي تجعل العمال ممكنين كطبقة، والتي تجعلهم يعترفون بهذه الإمكانية لأنفسهم، وقد تم تدميرها". لقد جُعل العامل «صالحاً للخدمة العسكرية»، ومُنح «حق التحالف، وحق التصويت في السياسة!» ما الذي يثير الدهشة إذا كان وجوده يبدو له، بالفعل اليوم، مثل كارثة (أو، إذا تحدثنا بلغة الأخلاق، مثل الظلم)؟ ولكن ماذا نريد؟ يسأل نيتشه. "إذا أراد المرء تحقيق غاية، فيجب عليه أيضاً أن يريد الوسيلة؛ إذا أراد المرء العبيد، فمن الجنون أن يمنحهم ما يجعلهم أسياداً!"

في الوقت الحاضر، كما يقول نيتشه، نأمل في "إدارة الإنسانية" بطريقة أكثر اقتصاداً وأقل تدميراً وأكثر اتساقاً وأكثر منهجية، عندما لن يكون هناك سوى "كائنات جماعية واسعة وأعضائها". وكل

ما يتعلق بأي شكل من الأشكال بهذه الـ "غريزة" المركزية والاندماج في الجماعة يعتبر جيداً وعادلاً؛ وهذا هو ما يشكل التيار الأخلاقي العظيم في عصرنا، على حساب كل نشاط، وكل مبادرة، وكل أصالة فردية. وينتهي بنا الأمر إلى "الانحطاط التام للإنسان". والتي "لا يعرف رؤساء الاشتراكيين السطحيين الحمقى كيف يحيدون عنها"؛ لأن المثل الأعلى لهم هو "تغييب الإنسان وحجبه"، معادلة الحقوق، ومساواة الحياة المشتركة في الشركة الجماعية، الخاضعة للوسائل المشتركة لتحقيق الغايات الاجتماعية. ليس للاشتراكية هدف آخر سوى إرضاء وتملق "أسمى تطلعات القطيع". إن الحركة الاشتراكية، مثل الحركة الديمقراطية، ليست سوى نتيجة للأخلاق القائمة على مفاهيم العدالة والإحسان. وما هي النتيجة الوحيدة؟ في كل مكان يتطور الكرب الذي يسيطر على روح غير الصبر، الكائنات المريضة والجشعة.

الدرجة الأخيرة مما قد يسميه نيتشه بكل سرور، مع رابليه، ضد الطبيعة، المضاد للطبيعة، هي المساواة التي يريد الديمقراطيون والاشتراكيون تأسيسها بين الرجل والمرأة. يدعي، هؤلاء الطوباويون، بالقيام بما لا يستطيع البرلمان الإنجليزي فعله، وفقاً لمقولة مشهورة، وهو تحويل المرأة إلى رجل. إن وظيفتي الجنسين، في الواقع، مختلفتان تماماً مثل الجنسين أنفسهما: يجب على الإنسان أن ينتج أعمالاً من جميع الأنواع؛ بالنسبة للمرأة ليس هناك شيء غير الحب والطفل. يقول زرادشت: "كل شيء في حياة المرأة لغز، وكل شيء في المرأة له حل، وهو ما يسمى "الولادة". ويضيف زرادشت: "إن لسعادة الإنسان اسم: أنا أريد". لسعادة المرأة اسم: إنها تريد. ويخلص

زرادشت إلى أن "الرجل يجب أن يربى على الحرب، والمرأة على تسلية المحارب: أما الباقي فهو حماقة"[24].

كل التحيزات المحافظة لألمانيا التقية تظهر مرة أخرى واحدة تلو الأخرى في "زرادشت الكافر". كان رجال الدولة الأكثر تعلقاً بالماضي أقل تراجعاً من نبي الأزمنة القادمة. ومع ذلك، وبعد بضع صفحات، يعنون فقرة: للهمس في آذان المحافظين". إذن ما الذي ينزلق إليهم؟ "ما لم نعرفه في الماضي، وما نعرفه اليوم، وما يمكننا معرفته. وهو أن التشكيل المتخلف، والتراجع، بأي حال من الأحوال، وبأي درجة، غير ممكن على الإطلاق. على الأقل هذا ما نعرفه نحن علماء الفيزيولوجيا... هناك أطراف تحلم بجعل الأشياء تسير بشكل عكسي مثل جراد البحر. ولكن لا أحد حر في أن يكون جرادا! ويخلص نيتشه إلى أنه لا يوجد علاج لشرور الديمقراطية والاشتراكية والفوضوية: "لا يمكننا القيام بأي شيء: علينا المضي قدماً، وأعني أن نتقدم خطوة خطوة نحو الانحطاط (وهذا هو تعريفي للتقدم الحديث)"[25].

نيتشه هو جوزيف دي مايستر (Joseph de Maistre) الذي يؤمن بالجلاد دون أن يؤمن بالبابا. من جوزيف دي مايستر، حصل على حب التقليد العلماني الكوني والكاثوليكي الحقيقي، للسلطة في معارضة الحرية، "المؤسسة" المستقرة، الملكية، الوراثية، في معارضة المؤسسة الشعبية التعاقدية، المتغيرة. يقول: "لكي تكون هناك مؤسسات، يجب أن يكون هناك نوع من الإرادة، والغريزة، والحتمية التي تكون مناهضة لليبرالية إلى حدّ الشر: إرادة للتقاليد، والسلطة،

[24] - *Crépuscule des idoles*, § 40, trad. franc. p. 212.
[25]- *Ibid.*, § 43, p. 215.

والمسؤولية، والتي تأسست على مدى قرون، وإرادة للتقاليد، والسلطة، والمسؤولية. التضامن مقيد عبر القرون، في الماضي وفي المستقبل، إلى ما لا نهاية. عندما توجد هذه الإرادة، يتم تأسيس شيء مثل الإمبراطورية الرومانية، أو مثل روسيا، الشخص الوحيد الذي لديه اليوم أمل لفترة معينة، والذي يمكنه الانتظار، والذي لا يزال بإمكانه أن يعد بشيء،- روسيا، الفكرة المعاكسة لـ الهوس البائس الذي أصاب الدول الأوروبية الصغيرة، والعصبية الأوروبية، التي أوصلها تأسيس الإمبراطورية الألمانية إلى مرحلتها الحرجة"[26].

لا يفوت نيتشه أبداً فرصة السخرية من الإمبراطورية الألمانية، التي تبدو له بمثابة تراجع، ونوبة من حمى الديمقراطية، وعمل منحط حيث يخضع كل شيء لنزعة عسكرية عبثية ومركزية تمهيدية للجماعية.

والغريب أن هذا المعجب بالمؤسسات الكبرى المستقرة لا يرى في أخلاق حتى أكثر المؤسسات استقراراً، الصخرة الثابتة التي يرتفع عليها كل الباقي، أول "السلطات"، "التقاليد"، "المسؤوليات"، "التضامن"، الإمبراطورية الإنسانية المتفوقة على الإمبراطورية الرومانية. علاوة على ذلك، فهو يجلد بقسوة الاستقلال الزائف الذي هو أساس الديمقراطية الزائفة. "كل ما يجعل المؤسسات مؤسسات محتقرة ومكروهة ومهملة؛ يعتقد المرء أنه معرض لخطر العبودية مرة أخرى بمجرد سماع كلمة "السلطة". نرى أنه ليس هناك ما هو أكثر استبدادية من هذا التحرري الذي كان نيتشه.

من خلال اندماج الأجناس والطبقات والرتب والأجناس، تميل الاشتراكية والمساواة، حسب رأيه، إلى تحويل العالم إلى مصح فسيح

---

26 - *Ibid.*, § 39, trad. franc. p. 211.

حيث تنتهي الحياة، ذات التماثل الباهت، إلى ما يشبه الوباء البطيء، حتى الأيام الأخيرة من العالم. الإنسانية نفسها تأتي، متدهورة، مستوية، باهتة.

انظروا! سأريكم الرجل الأخير.

ما هو الحب؟ الخلق؟ الرغبة؟ ما هو النجم؟ "هكذا سأل الرجل الأخير، ورمشت عيناه.

أصبحت الأرض صغيرة، وعليها يقفز الإنسان الأخير، الذي يقزم كل شيء. عرقه غير قابل للتدمير مثل المن: الرجل الأخير يعيش لفترة أطول بكثير.

لقد اكتشفنا السعادة، يقول آخر البشر، ويرمشون.

لقد هجروا المناطق التي يعيش فيها المرء بقسوة: لأنه يحتاج إلى الدفء.

إن نصاب بالمرض وأن نهذي خطيئة بالنسبة لهم: يمشي المرء بحذر. الأحمق الذي يتعثر بالحجارة أو بالناس.

القليل من السم من وقت لآخر: يجلب أحلاماً جميلة. والكثير من السم لكي ننتهي، لكي نموت بسرور.

ما زلنا نعمل، لأن العمل هو إلهاء. لكننا نحرص على ألا يتحول هذا الإلهاء إلى جهد.

ولم نعد نريد الفقر أو الثروة: فكلاهما يسبب الكثير من القلق. من لا يزال يريد أن يأمر؟ ومن يجب أن يطيع؟ كلاهما يفضيان إلى الكثير من المتاعب.

لا يوجد راعي وقطيع واحد فقط! الجميع يريد نفس الشيء. الجميع متساوون: من يعتقد خلاف ذلك، يدخل طوعاً إلى مصحة الأمراض العقلية...

لقد اكتشفنا السعادة، يقول آخر الرجال، ويرمشون!

IV

على الرغم من أنه قد طرح بلا أخلاقيته مبدأ اللا سلطوية ذاته، إلا أن نيتشه يشعر بأعمق الرعب تجاه الفوضويين الثوريين والمساويين والإنسانيين. فقال لهم زرادشت:

أنت تعرف كيف تعوي وتظلم بالرماد! أنتم أفضل الأفواه وقد تعلمتم ما يكفي من فن غليان الطين...

حرية! إنها صرختك المفضلة، لكنني تخليت عن الإيمان بالأحداث العظيمة، بمجرد وجود الكثير من العواء والسماد حولها[٢٧].

يقول نيتشه، إننا نرى في أيامنا، عند كل البائسين، تزايداً في هذا العواء الغاضب، وهذا الصرير المتزايد والمتوحش لأسنان "الكلاب الفوضوية، التي تتجول على جميع طرق الحضارة الأوروبية". أمام الديمقراطيين الذين يصرخون: "الخبز والعمل!". الفوضويون هم فقط في تناقض ظاهري؛ ومن الواضح أيضاً تناقضهم "مع منظري الثورة هؤلاء، ومع فلاسفة الأخوة العالمية الأغبياء والعاطفيين جداً الذين يسمون أنفسهم اشتراكيين ويريدون مجتمعاً حراً"[٢٨]. بغض النظر عن مدى نباحهم على بعضهم البعض، فإن الاشتراكيين والفوضويين متفقون تماماً على كراهية أي شكل اجتماعي آخر غير "هيمنة القطيع المستقل"؛ كما أنهم يبشرون بالجماعية التي تعتبر ضرورية بمجرد أن يرغب المرء في إلغاء "أرباب العمل والعمال، السادة والعبيد". لديهم "نفس المطالبة العنيدة ضد كل حق وامتياز للفرد المعزول"؛ وهذا يعادل، بالنسبة إلى نيتشه، معارضة جميع الحقوق بشكل عام، لأنه "عندما تتساوى جميع

---

[27]- *Zarathoustra*, trad. Albert, p. 184.
[28] - *Aurore*, p. 128 et suiv.

الحقوق، تصبح جميع الحقوق عديمة الفائدة" - وهو افتراض مذهل، وهو حريص على عدم إثباته.

إحدى السمات المشتركة بين الاشتراكيين والفوضويين، وفقاً لـ نيتشه، هي "دين الشفقة على كل ما يشعر، ويعيش، ويتألم (وصولاً إلى الوحش، وصولاً إلى الله...)". بل أكثر من ذلك، إنها "صرخة احتجاج، ونفاد صبر الرحمة، والكراهية المميتة لكل المعاناة بشكل عام، والعجز شبه الأنثوي عن تحمل مشهد المعاناة والسماح بالمعاناة؛ إنه التشويش والتخنيث غير الطوعي الذي تهدد به البوذية الجديدة أوروبا؛ إنه الإيمان بأخلاق الرحمة المتبادلة، كما لو كانت هذه هي الأخلاق بامتياز، العظمة، القمة التي وصل إليها الإنسان، الأمل الوحيد للمستقبل، عزاء الحاضر، الخلاص العظيم من خطيئة الماضي". باختصار، الإيمان الموجود في كل هذه الطوائف هو الإيمان بالجماعة الفادية، بالقطيع، وبالتالي بأنفسهم[٢٩]".

السمة الأخرى المشتركة بين الاشتراكيين والفوضويين هي رفض جميع أنواع القصاص والعقوبات القانونية. على الرغم من أن نيتشه، من وجهة نظره الخاصة، لم يكن يريد الاعتراف بالخير الحقيقي أو الشر الحقيقي، ولا بالأخلاق، ولا بالفجور، ولا بالإلزام، ولا بالعقوبة، فإنه مع ذلك يصبح، من وجهة النظر الاجتماعية، مؤيداً حازماً للعقاب، بشرط أن هؤلاء هم السادة الذين يفرضون ذلك على العبيد. وهو يشكو في هذا الموضوع من عاطفتنا تجاه المجرمين. يقول: "يأتي وقت في حياة الناس يصبح فيه المجتمع أعمى، ويضعف إلى حدّ الانحياز حتى مع الفرد الذي يخطئ، ومع المجرم- وذلك بأخطر طريقة في العالم. المعاقبة! يبدو له أن حقيقة العقوبة تحتوي

[29]- *Au-delà du bien et du mal*, p. 126.

على شيء ظالم؛- من المؤكد أن فكرة "العقاب" و"ضرورة العقاب" تؤلمه وتخيفه: ألا يكفي إبعاد المجرم عن الأذى؟ فلماذا العقاب؟ "العقاب مؤلم جداً"! نيتشه نفسه لا يعرف مثل هذه الشفقة الجبانة على الذات. إنه يوبخ الإنسان كما يؤدب الإنسان كلبه، وإذا عانى الإنسان، فهذا أسوأ بكثير، أو أفضل كثيراً! ألا يجب على من يملك القوة العليا أن ينشرها على حساب القوى الأدنى وفي النهاية لصالحها؟ وبعد أن لام أيضاً زمن الديمقراطية والاشتراكية الذي نعيشه على تساهله مع المذنبين، فإن نيتشه هو مع ذلك أول من دعا ببلاغة إلى التعاطف مع المجرمين، الذين هم غير مسؤولين:

ألا تريدون أن تقتلوا أيها القضاة والكهنة قبل أن يهز الوحش رؤوسكم؟ انظروا! لقد هزّ المجرم الشاحب رأسه: من عينيه يتكلم ازدراء عظيم... قَتْلُكم أيها القضاة يجب أن يكون رحمة وليس انتقاماً. وفي القتل انظروا إلى تبرير الحياة نفسها!

لا يكفي أن تتصالح مع من تقتله. فليكن حزنك هو حب الرجل الخارق، وبذلك تبرر بقاءك.

قل "عدو" وليس "شرير"، قل "مريض" وليس "مارق"، قل "أحمق" وليس "آثم".

وأنت، أيها القاضي الأحمر، إذا قلت بصوت عالٍ ما فعلته بالفعل في أفكارك، فسوف يصرخ الجميع: أبعد هذه القذارة وهذه الدودة السامة!

لكن الفكرة شيء، والفعل شيء آخر، وصورة الفعل شيء آخر. ولا تدور عجلة السببية بينهما.

ما هذا الرجل؟ كومة من الأمراض التي تتدلع من العالم بالروح. هذا هو المكان الذي يريدون أن يغنّوا فيه.

ما هذا الرجل؟ مجموعة من الثعابين البرية، التي نادراً ما تكون هادئة معاً؛ ثم يذهب كل واحد على حدى ليطلب الغنيمة عبر العالم.

أنظر إلى هذا الجسد المسكين! ما عانى منه وما كان يرغب فيه، حاولت هذه النفس المسكينة أن تفهم؛ لقد فسرته على أنه فرح وحسد إجرامي تجاه سعادة السكين.

من يمرض الآن يتفاجأ بالشر الذي هو شر الآن؛ يريد أن يتأذى بما يؤذيه. ولكن كانت هناك أوقات أخرى، خير آخر وشر آخر.

ولكن هذا لا يريد أن يدخل أذنيك. تقول إن ذلك يؤذي الطيبين منكم؛ ولكن ماذا تهمني املاكك؟

أشياء كثيرة تثير اشمئزازي من عبيدك، وهذا ليس شرهم حقاً. أود أن يكون لديهم جنون يقتلهم، مثل هذا المجرم الشاحب! حقاً أود أن تسمى حماقتهم الحقيقة أو الإخلاص أو العدالة، لكن لديهم "فضيلتهم" للعيش لفترة طويلة في الرضا الذاتي البائس.

أنا ضمان على ضفاف النهر: من يستطيع أن يأخذني فليأخذني!

لكن هذه نصيحتي لكم يا أصدقائي: احذروا من كل من لديهم غريزة العقاب قوية!

إنهم سلالة سيئة وعرق سيئ: على وجوههم ملامح الجلاد والجرذان.

احذروا من أي شخص يتحدث كثيراً عن صلاحه! في الحقيقة، ليس فقط العسل الذي تفتقر إليه أرواحهم.

وإذا كانوا يدعون أنفسهم صالحين وأبرار، فتذكروا أنهم لا يملكون إلا القدرة على أن يكونوا فريسيين.

هكذا تكلم زرادشت[٣٠].

لكن ألا يتحدث زرادشت بالضبط مثل الاشتراكيين والفوضويين والديمقراطيين؟ ألا يتكلم أيضاً مثل دوستويفسكي ومثل تولستوي؟ فهل يأتي في ضد المسيح ليقوم على الكلمة العظيمة: "لا تدينوا فلا تدانوا؟

30 - *Zarathoustra*, trad. franc. p. 47 et 137.

V

الديمقراطية والاشتراكية والفوضى هي، وفقاً لـ نيتشه، انعكاس للحركة الدينية التي دمرت الإمبراطورية الرومانية. كل هذا في نظره يشكل "الكذبة" عينها. ويقول إن الكذب يمكن أن يكون أمراً جيداً، لأن الحقيقة ليس لها قيمة في حدّ ذاتها، ولكن يجب على المرء أن يأخذ في الاعتبار الهدف الذي يكذب من أجله: "الأمر مختلف تماماً إذا كان للحفظ أو التدمير". الآن، في هذا الصدد، يمكننا أن نضع المسيحي والفوضوي بشكل متوازٍ تماماً؛ "أهدافهم وغرائزهم مُدَمرة فقط". يحاول نيتشه إقناعنا بأن التاريخ يثبت هذا الادعاء "بدقة مروعة". ما كان موجوداً قبل فترة طويلة، الإمبراطورية الرومانية، كان "أعظم شكل من أشكال التنظيم الذي تمّ تحقيقه على الإطلاق، في ظل ظروف صعبة، وكان عظيماً جداً لدرجة أن كل ما سبقه وكل ما تبعه، مقارنةً به، كان هواية، وهو عمل غير كامل وفاسد". هؤلاء "الفوضويون المقدسون" أشفقوا على تدمير "العالم"، أي الإمبراطورية الرومانية، حتى لم يعد هناك حجر على حجر، "حتى الألمان وغيرهم من الأشخاص الخرقاء كانوا قادرين على السيطرة عليها؛ "المسيحي والفوضوي كلاهما منحطان، وكلاهما غير قادر على التصرف بطريقة أخرى غير طريقة متحللة، سامة، ذائبة؛ في كل مكان يستنزفون الدم، لدى كليهما، بالفطرة، كراهية حتى الموت ضد كل ما هو موجود، كل ما هو عظيم، كل ما له ديمومة، كل ما يعد بمستقبل الحياة... كانت المسيحية مصاصة دماء الإمبراطورية الرومانية؛ لقد أبطلت، في ليلة واحدة، هذا العمل الهائل الذي قام به الرومان: أن يكتسبوا أرضاً لثقافة عظيمة لديها وقت. هل ما زلنا لا نفهم؟ إن الإمبراطورية الرومانية التي نعرفها، والتي يعلمنا تاريخ

المقاطعة الرومانية أن نعرفها أكثر من أي وقت مضى، هذا العمل الفني الرائع ذو الطراز الكبير، كان البداية: تم تصميم صرحها ليثبت بآلاف السنين؛ لم يسبق لنا أن بنينا بهذه الطريقة، ولم نحلم أبداً بالبناء على قدم المساواة، نوع فرعي أبدي! كانت هذه المنظمة قوية بما يكفي لدعم الأباطرة السيئين: لا ينبغي أن يكون لفرصة الناس أي علاقة بمثل هذه الأشياء، وهو المبدأ الأول لكل الهندسة المعمارية العظيمة، ومع ذلك لم تكن قوية بما يكفي ضد أكثر أنواع الفساد فساداً، ضد المسيحي..."

إن معارضة المسيح للمسيحية، وإظهار تغيير في العقيدة الإنجيلية الحقيقية في الدين المسيحي، وفي الأناجيل نفسها بداية تغيير في يسوع الحقيقي، ليس هذا بلا شك شيئاً جديداً: نيتشه، بدوره، يستأنف المهمة. وقال: "لم يكن هناك سوى مسيحي واحد، ومات على الصليب". علاوة على ذلك، من الذي فهم ورسم ملامح المسيح بشكل أفضل من نيتشه المعادي للمسيحية؟ يقول: "ليس إيمانه هو ما يميز المسيحي"، فهم التلميذ الحقيقي للمسيح؛ إن المسيحي يتصرف، فهو يتميز بطريقة مختلفة في التصرف. ولا يقاوم الأشرار إليه لا بالكلام ولا بالقلب. لا يميز بين الأجانب والمواطنين... ولا يغضب من أحد. وهو لا يحتقر أحداً. لا يظهر أمام المحكمة ولا يسمح لنفسه بالدعوة (عدم أداء اليمين). كل هذا هو في الأساس بديهية واحدة، كل هذا نتيجة غريزة. ولم تكن حياة المخلص سوى هذه الممارسة؛ ولم يكن موته شيئاً آخر أيضاً... لم يعد بحاجة إلى صيغ أو طقوس للعلاقة مع الله، ولا حتى الصلاة. لقد انتهى من كل التعاليم اليهودية حول التوبة والغفران. فهو وحده يعرف ممارسة الحياة التي تعطي الشعور بأنه إلهي، مبارك، إنجيلي، دائماً ابن لله. التوبة والصلاة من أجل المغفرة ليست دروباً إلى الله؛ الممارسة

الإنجيلية وحدها تقود إلى الله، فهي الله. ما أطاح به الإنجيل هو اليهودية فكرة الخطيئة، ومغفرة الخطايا، والإيمان، والخلاص بالإيمان؛ لقد تم إنكار كل العقيدة اليهودية في رسالة الفرح".

يعزو نيتشه إلى مؤسس المسيحية الغريزة العميقة للطريقة التي يجب أن يعيش بها المرء، لكي يشعر بنفسه في الجنة، لكي يكون حياً، إلى الأبد، في حين أنه مع أي سلوك آخر لن يشعر المرء بنفسه في الجنة على الإطلاق؛ وهذا وحده، كما يقول نيتشه، هو الواقع النفسي للخلاص. حياة جديدة، وليس إيماناً جديداً".

يضيف نيتشه، مستوحياً بذلك من كل أعمال التفسير الألماني وكل الرمزية العزيزة على الفلسفة الألمانية، هذه الكلمات المميزة: "إذا فهمت شيئاً ما عند هذا الرمزي العظيم، فهو حقيقة عدم اعتبار الحقائق الداخلية فقط حقائق؛ أما الباقي، كل ما هو طبيعي، كل ما يتعلق بالزمان والمكان، كل ما هو تاريخي، فقد ظهر له فقط كعلامات، ومناسبات للأمثال. إن فكرة ابن الإنسان ليست شخصية ملموسة تشكل جزءاً من التاريخ، شيئاً فردياً، فريداً، ولكنها حقيقة أبدية، رمز نفسي، متحرر من فكرة الزمن. وهذا صحيح مرة أخرى، وبمعنى أعلى، عن إله هذا الرمز النموذجي، عن ملكوت الله، ملكوت السماوات، ابن الله". يعلن نيتشه، مع شتراوس ورينان، أنه من الضروري استخلاص المعنى العميق للعقيدة، الروح التي تحيي من الحرف الذي يقتل. بالنسبة له، على سبيل المثال، كلمة "ابن" تعبر عن اختراق الشعور بالتحول العام لكل شيء (النعيم)؛ كلمة الأب، هذا الشعور بالذات، الشعور بالخلود والإنجاز. ملكوت السماوات حالة القلب. "إنها ليست دولة فوق الأرض ولا بعد الموت. أي فكرة عن الموت الطبيعي غائبة في الإنجيل؛ الموت ليس جسراً، وليس ممراً؛ إنه غائب، لأنه جزء من عالم مختلف تماماً، واضح، مفيد فقط كعلامة.

ساعة الموت ليست فكرة مسيحية، ساعة وزمن وحياة جسدية وأزماتها غير موجودة عند سيد الرسالة السعيدة. إن ملكوت الله ليس أمراً متوقعاً، وليس له أمس ولا يوم بعد غد، ولا يأتي بعد ألف عام، إنه تجربة القلب، إنه في كل مكان، وهو ليس في أي مكان". يتحدث نيتشه هنا مثل سبينوزا وسويدنبورغ. "لقد مات هذا الرسول البهيج كما عاش، كما علّم، لا ليخلص الناس، بل ليبين كيف ينبغي للمرء أن يحيا. الممارسة هي ما تركه للناس: موقفه أمام القضاة، أمام الجلادين، أمام المتهمين وكل أنواع الافتراءات والاعتداءات، موقفه على الصليب. إنه لا يقاوم. لا يدافع عن حقه، ولا يتخذ خطوة لإزالة التطرف من نفسه؛ والأكثر من ذلك أنه يستفزها. ويصلي ويتألم ويحب مع من أساء إليه... لا ليدافع عن نفسه، ولا يغضب، ولا يلوم... ولكن أيضاً لا يقاوم الشر، ويحب الشر"

هذه النقاط الأخيرة هي الوحيدة التي وجد نيتشه أنها تتناولها في المسيح.- ولكننا سوف نسأل: أليست مقاومة الشر الذي هو هدفه وحده ومحبة الأشرار، إذن "أن تحب الشر؟" ينحرف نيتشه هنا عن المسيحية الحقيقية، التي رسمها للتو بمصطلحات تذكرنا بتولستوي. اعتاد نيتشه أن يقول إن يسوع وجد فيه "أفضل عدو له؛ لقد كان أفضل عدو له". لقد وجد يسوع فيه أيضاً أحد أفضل أصدقائه. أريد أن يكون نيتشه "معادياً للمسيحية"، لكنه ليس "معادياً للمسيح". مؤلف التقليد وحده لديه دين مماثل. لماذا إذن، بعد أن فهمنا جيداً الدين الداخلي والأخلاق الأبدية، نهز قبضتنا على كل الأخلاق؟ لماذا، عندما نعجب ونحب يسوع، نتخذ موقف الشيطان؟ لقد شعر زرادشت بحلاوة الحب السامية، ومع ذلك فهو يجعل من نفسه رسول القسوة.

"الحب"، كما يعترض نيتشه على المسيحيين، "هو الحالة التي يرى فيها الإنسان معظم الأشياء على غير حقيقتها. القوة الوهمية موجودة في أعلى درجاتها؛ وكذلك قوة التليين، قوة التمجيد. نحن نتحمل أكثر في الحب، ونعاني كل شيء. كان الأمر يتعلق بالعثور على دين يمكنك أن تحبه: بالحب تضع نفسك فوق أسوأ الأشياء في الحياة، ولا تراها على الإطلاق". ويستنتج نيتشه من هذا أن محبة المسيحيين هي "حكمة"، ومهارة لإنجاح دينهم. إنه لا يسأل نفسه، إلى جانب الحب الأعمى، لا يوجد حب مستبصر أو حب إلهي. صحيح أن الحب يظهر جملة من الأشياء على غير حقيقتها في واقع اليوم، لكن ألا يظهر للآخرين كما سيكونون في واقع الغد؟ ألم يتنبأ يسوع، بمحبته، بشيء ممّا سيقام يوماً ما، بفضله، بين البشر؟

VI

امزج السفسطة اليونانية والشكوكية اليونانية مع طبيعية هوبز ومع أحادية شوبنهاور، التي صححها داروين، والمتبلة بمفارقات روسو وديدرو، ستحصل على فلسفة نيتشه. متقدمة في المظهر، جذابة في سمات شاب بارع يبحث عن الجديد، ومع ذلك، فهذه الفلسفة هي في جوهرها قديمة و"رجعية" بكل معنى الكلمة، وهي عدو لكل ما يسمى التقدم الحديث. "الحداثة، أي أنها زائفة"، يكرر نيتشه بكل لهجته، ويخصص أحد فصول كتابه الأخير، "إرادة القوة"، للعن "الحداثة". يعتقد أنه محمي من كل الأحكام المسبقة التي تأتي من "القطيع": ولم يتمكن أحد، أكثر من منشد القوة والحرب، من تكديس كل تحيزات القطيع في ألمانيا التي ظلت إقطاعية في منتصف القرن التاسع عشر، وكل الأفكار السائدة القادمة من العرق والبيئة والزمن، المتلاحمة مع أفكار شبيهة في العصور القديمة والعصور الوسطى وعصر النهضة.

لكن آخر الرومانسيين يجدد كل شيء، ويجعل كل شيء مقبولاً بسحر قصائده الغنائية. ومع أنه يعتقد أن كل روح منعزلة في ذاتها وغير قابلة للاختراق عن الآخرين، إلا أن معجزة شعره تجعل روحه شفافة للجميع:

ما أجمل أن تكون هناك كلمات وأصوات! أليست الكلمات والأصوات بمثابة قوس قزح وجسور وهمية بين ما هو منفصل إلى الأبد؟

لكل روح ينتمي عالم آخر؛ لكل روح، كل روح أخرى هي عالم آخر.

بالنسبة لي، كيف يمكن أن يكون هناك أي شيء خارجي؟ لا يوجد خارج! لكن كل الأصوات تجعلنا ننسى ذلك؛ كم هو جميل أن ننسى!

ما أحلى الكلمات كلها! كم تبدو جميلة كل أكاذيب الأصوات! الأصوات تجعل حبنا يرقص على أقواس قزح متعددة الألوان.

بماذا يجب أن ندحض نيتشه؟ بنفسه. إذا كان، في أعماله المدروسة، يضع السم دائماً بجوار الطعام، فهو دائماً يضع السم المضاد هناك أيضاً. بعد أن استهزأ بكل مفهوم للمساواة، هتف نيتشه: "المساواة لجميع المتساوين، وعدم المساواة لجميع غير المتكافئين، هكذا تتحدث العدالة الحقيقية، وتضيف منطقياً: لا تساوي أبداً ما هو غير متساوٍ". هكذا يفكر نيتشه مع رينان وتين. وهو لا يرى أن المبدأ الذي يعتقد أنه يتعارض مع ميثاق الحقوق هو نفس المبدأ الذي يتضمنه مشروع القانون هذا. لأن الأمر لم يكن أبداً يتعلق فقط بالمساواة في الحقوق "أمام القانون". فهو يعلن (ما أهمية الأسلوب العتيق في ذلك الوقت؟) أنه ينبغي معاملة جميع المواطنين "وفقاً لقدراتهم، من دون أي تمييز سوى فضائلهم ومواهبهم". المساواة من أجل المتساوين، وعدم المساواة من أجل غير المتساويين، لكنها عقيدة القانون الديمقراطي ذاتها، إنها تعريف العدالة بالنسبة لـ طورغو (Turgot) لـ كوندورسيه تماماً كما هو الحال بالنسبة لـ نيتشه! لا تساوي ما هو غير متساوٍ، ولا غير متساوٍ ما هو متساوٍ، ولكن هذه هي إدانة عدم المساواة أمام القانون! إذا كنت، بنفس الجدارة أو النقص، تعامل الغني، النبيل، "السيد"، الرئيس، بشكل مختلف عن الفقير، عن رجل الشعب، عن "العبد"، عن العامل، فذلك يعني أنك أنت من يجعل ما هو متساوٍ غير متساوٍ بشكل مصطنع!

عندئذ تزيّفون الموازين والمكاييل، بإدخال فوارق مصطنعة وطبقات قسرية تتساوى فيها العقول والقلوب والإرادات الحرة. كما أن نيتشه على حق في معارضة العدالة للمساواة الزائفة (التي يخلطها خطأً مع الحق)؛ ولكن بعد ذلك، وباعترافه الشخصي، هناك "الحقيقة" و"العدالة"، على الرغم من أنه كان يكرر لنا: "لا شيء صحيحاً، كل شيء مباح؛ كل شيء مباح؛ كل شيء مباح". مع أنه وضع "الحق" و"الصالح" بين قيم الانحطاط التي تدفع بالإنسانية إلى الأسفل بدلاً من أن ترفعها نحو الرجل الخارق!

يحب أن يعنون فصوله: اللا أخلاقي يتكلم"؛ في أعلى الصفحة التي قرأناها للتو، كان بإمكانه أن يضع، بتناقض سعيد: "الأخلاقي يتحدث!" السفسطائية، عند نيتشه، تصطدم دائماً بالحقيقة. ولا ينبغي للتنظيم القانوني، بالطبع، أن يمنع أي نضال عادل، بمعنى المنافسة والمحاكاة، وهذا ما ينساه الجماعيون؛ ولكن يمكنها، بل ويجب، أن تمنع أي صراع عنيف وغير عادل، حيث يكون المنتصر هو الأقوى والأكثر مكراً والأقل ضميراً والأكثر شراً. إذا كان على القاعدة الاجتماعية أن تجعل جميع الإرادات "متساوية" في الحقوق والواجبات، فإنها لا تجعلها متساوية بأي حال من الأحوال في النواحي الأخرى؛ وهنا مرة أخرى يرتكب نيتشه الخلط المبتذل بين المساواة الحقيقية والزائفة. فمن خلال المساواة في الحقوق ذاتها نضمن ظهور عدم المساواة، الطبيعية أو المكتسبة، في الذكاء والعمل والجدارة. ومن ثم فإن العدالة الاجتماعية لا تسير "في معارضة الحياة"، بل في اتجاه الحياة نفسها، مما يضمن انتصار الأفضل فكرياً وأخلاقياً، وليس الأقوى مادياً.

يخلط نيتشه بين الديمقراطية والشيوعية، فهو لا يرى فيها سوى انتصار روح القطيع و"حكم الرعاع". – ألا توجد روح القطيع

أيضاً في الأرستقراطيات؟ أليست الطائفة نفسها قطيع؟ ازدراء الديمقراطية هو ازدراء للشعب. ازدراء الشعب هو ازدراء للإنسانية! وأضيف أن ازدراء الإنسانية هو ازدراء للذات.

إلى جانب العدالة، نحن نعلم بأي شدة يدين نيتشه الشفقة، والإحسان، والعمل الخيري، وكل "العاطفية الحديثة" -إنك تفقد قوتك عندما تتعاطف"، كما يزعم. من خلال الشفقة تزيد وتضاعف فقدان القوة التي تجلبها المعاناة بالفعل إلى الحياة" . وبإلهام من داروين وسبنسر، الذي لم يكن أقل رواجاً في عصره من علم وظائف الأعضاء النفسي، رأى في شفقة المحسنين عقبة مصطنعة أمام فوائد الانتقاء الطبيعي، الذي بدونه كان من شأنه القضاء على الضعفاء وغير الأسوياء. "الشفقة تحبط قانون التطور، وهو قانون الاختيار. إنها تفهم في حضنها ما هو جاهز للاختفاء، وتدافع عن نفسها لصالح المحرومين والمحكوم عليهم بالحياة" .

من خلال عدد وتنوع الأشياء المفقودة التي تعيقها في الحياة، فإنها تمنح الحياة نفسها جانباً كئيباً ومشكوكاً فيه. "لقد امتلكنا الشجاعة لوصف الشفقة بأنها فضيلة (في كل الأخلاق النبيلة، تعتبر ضعفاً)؛ لقد ذهبنا إلى أبعد من ذلك، وجعلنا منها الفضيلة والأرض وأصل كل الفضائل (شوبنهاور). لكن يجب ألا ننسى أبداً أنه كان من وجهة نظر فلسفة عدمية، كتبت على درعها نفي الحياة. هناك أناس محرومون من الميراث بسبب الظروف الاجتماعية؛ هل ينبغي القضاء عليهم مثل المحدودبين أو الكسيحين؟ إذا كان بايرون يعرج، فهل يجب أن نلقيه في الهاوية بسبب ذلك قبل أن يكتب تشايلد هارولد؟ هل كان نيتشه نفسه متأكداً من الإفلات من الإدانة الفورية؟ ألم يكن أيضاً خاسراً في الحياة؟ علاوة على ذلك، إذا أردنا التغلب على الشرور، فيجب علينا أن نعرفها، ويجب أن ندرسها،

ويجب أن نعالجها، ويجب أن نتعلم كيفية علاجها؛ إن علم الحياة لن يحرز أي تقد م دون علم شرور الحياة، والذي يفترض في حد ذاته الرحمة التي تؤدي إلى الفعل. ويضيف نيتشه، مع سبنسر، أن العمل الخيري الواسع الذي دخل الآن في أعرافنا ليس عديم الفائدة فحسب، بل ضار أيضاً بالمجتمع. لقد سبق لنا أن تناولنا المشكلة في هذه المراجعة وفي كتاب (العلم الاجتماعي المعاصر) الذي يبدو أن نيتشه قد غطاه بحواشي هامشية. ونأسف لعدم معرفتنا بتصريحاته واعتراضاته؛ لكن كان لا بد من اختزالهم جميعاً بالمشهور: "يهلك الضعفاء والفاشلون! ويبقى أن نرى ما هو المقصود بالضعيف. لقد كان نيتشه ضعيفاً جسدياً، ويجب قمعه! لقد أصبح، لسوء الحظ، أكثر من مجرد فاشل، ومجنون. ومع ذلك فهو مثال على الفائدة التي يمكن أن يتمتع بها ضعفاء الجسد وحتى غير المتوازنين في الروح، والذين لديهم أحياناً قدرات فكرية متفوقة.

لقد سلط نيتشه الضوء بوضوح على مخاطر الاشتراكية ودحض الفوضويين بشكل مثير للإعجاب، لكن ألا يدحض نفسه في نفس الوقت؟ بعد أن وضع بنفسه مبدأ كل أناركية، هل يحق له أن يرفض نتائجها المشروعة: الترخيص المطلق؟ مثل العدميين والفوضويين، قمع كل الأخلاق، كل "الحتمية" العليا، كل القانون الداخلي باستثناء إرادة السلطة. نعم، سيجيب، ولكننا من أجل ذلك لا نقمع كل سلطة، "كل طغيان ضد الطبيعة وحتى ضد العقل، إلا أننا نريد أن نحكم على أنفسنا، من أي أخلاقية أخرى، بأن جميع أنواع الاستبداد واللاعقلانية محرمة. ولذلك فإنه باسم قوانين الحياة الطبيعية وحدها يدعي نيتشه أنه يدين مصلحي الحياة الاجتماعية. ووفقاً له، فإن الاشتراكي أو الفوضوي ليس سوى الناطق باسم الطبقات الاجتماعية في مرحلة الانحطاط. "عندما يطالب الأناركي، بسخط

جميل، بالقانون، والعدالة، والمساواة في الحقوق، فإنه يجد نفسه تحت ضغط افتقاره إلى الثقافة، الذي لا يعرف كيف يفهم سبب معاناته في أعماقه، وبأي طريقة يعاني فقيراً، أي حياً. إن فيه غريزة السببية التي تدفعه إلى التفكير؛ يجب أن يكون خطأ شخص ما إذا وجد نفسه غير مرتاح"[31].

وهكذا، بحسب نيتشه، فإن اللوم يقع على العامل الفوضوي أو الاشتراكي إذا كان في حالة بائسة تدفعه إلى اتهام المجتمع والمطالبة بقوانين توزيع أفضل! الفقراء هم الفقراء فقط في الحياة! من الذي سيجعل نيتشه يعترف بمثل هذه المفارقة؟ فهو من يقف متّهماً المجتمع عندما يكون ذلك باسم فرديته، فكيف يجد إذاً أن كلّ شيء باطل في اتهامات البائسين للمجتمع الحالي؟ في الأساس، قد يقول نيتشه ذلك، فهو نفسه فوضوي مناهض للتحررية، مناهض للمساواة، فوضوي، وبالنسبة له، بعد إلغاء كل القانون الأخلاقي، فإن أفضل شيء هو أن يقوم طاغية جيد بسن القانون. لقد تخيل الفوضويون الديمقراطيون، بعد أن أطاحوا بكل الأخلاق، أنهم لن يطيعوا شيئاً بعد الآن، ولكن، مع ثراسيماك وكاليكليس، قال لهم الأرستقراطي نيتشه:- يا أصدقائي، إنها لحظة الطاعة أكثر من أي وقت مضى؛ سيكون هناك دائماً عبيد، وسيكون هناك دائماً أسياد، هذا هو قانون الطبيعة الحقيقي؛ إذا كنت لا تستطيع (وهذا ما أخشاه) أن تكون جزءاً من السادة الذين يأمرون، فاستسلم لكونك جزءاً من العبيد الذين يطيعون.

لقد أُطلق اسم الفوضى السلبية على نسق تولستوي: عدم مقاومة الشر؛ نظام نيتشه هو عبارة عن فوضى نشطة تؤدي إلى

---

31 - *Crépuscule des idoles*, § 34.

استبداد "السادة" واستعباد "العبيد". يقول نيتشه بسخرية إن الفوضويين، الذين يزعمون أنهم مفكرون أحرار، يريدون رفض "الخضوع للقوانين التعسفية"؛ إنهم لا يرون أن القوانين والقيود، على الرغم من أنها ليست أخلاقية بأي حال من الأحوال، هي على أية حال عكس التعسف. "إنها، على العكس من ذلك، حقيقة فريدة أن كل ما يوجد أو كل ما كان على الأرض من حرية، وبراعة، وجرأة، وخفة، ويقين بارع، سواء في الفكر، أو في طريقة الحكم، أو في طريقة القول والاقناع، في الفنون كما في الأعراف، لم يتطور إلا بفضل طغيان هذه القوانين التعسفية؛ وعلى محمل الجد، من المحتمل جداً أن يكون هذا هو بالضبط ما هو طبيعي وطبيعي، وليس هذا التخلي!"

لقد قال نيتشه أعلاه العكس في خطاباته ضد المسيحية، لكن لا يهم. كفنان، يأخذ مثالاً من الفن؛ فهو يفحص كيفية تحقيق ذلك بشكل طبيعي. يقول إن كل فنان يعرف أن طبيعته، أو حالته الطبيعية، إذا شئت، بعيدة كل البعد عن الشعور بالترك والإهمال، ويمكن القول، بالفوضى الفكرية، "هذه الطبيعة التي تتمثل في النظام، المكان، للترتيب، للتشكيل بحرية، في لحظات الإلهام؛ ومن ثم فإنه يطيع بصرامة ومهارة قوانين متعددة، ترفض أن تختزل إلى صيغة من خلال المفاهيم، بسبب صلابتها ودقتها (بالمقارنة بها، فإن الأكثر صلابة لديها شيء عائم ومتعدد وملتبس). نحن بعيدون كل البعد عن الفوضى! ولكن أيضاً، من خلال فكرة القواعد المبنية على الطبيعة، والقوانين التي تستبعد التعسف، ألا نعود إلى الأخلاق؟ «إن الشيء الرئيسي في السماء وعلى الأرض، يخلص نيتشه مثل أخلاقي مبتذل، هو الطاعة لفترة طويلة، وفي نفس الاتجاه؛ هناك دائماً ما يؤدي على المدى الطويل إلى شيء يستحق العيش على الأرض، على

سبيل المثال، "الفضيلة، الفن، الموسيقى، الرقص، العقل، الروح، شيء يتجلى، شيء راقي، جيد والهي". الفضيلة! يقول نيتشه، هذه الفضيلة التي مثّلها في مكان آخر باعتبارها إنكاراً لا معنى له للطبيعة! إنه يرى فيها الآن الطبيعة الحقيقية، أو على الأقل الطبيعة الأفضل. "اعتبروا كل أخلاق من هذا الجانب، فإن الطبيعة فيها هي التي تعلم كراهية التخلي، والكثير من الحرية، والتي تغرس الحاجة إلى آفاق ومهام محدودة في متناول اليد، والتي تعلم بالتالي تضييق وجهات النظر، بمعنى ما. والغباء كشرط للحياة والنمو". الغباء طبعاً؟ نيتشه نفسه سوف يرد على هذه النكتة مرة أخرى. "عليك أن تطيع أي شخص، ولفترة طويلة؛ وإلا ستذهب إلى هلاكك، وستفقد آخر احترام لنفسك؛- يبدو لي أن هذا هو الحتمية الأخلاقية للطبيعة، وهي ليست قاطعة، أو مناقضة لمطالب كنط القديم (وبالتالي "خلاف ذلك")، ولا موجهة إلى الفرد (ما أهمية الفرد في الطبيعة؟) ولكنها موجهة إلى الشعوب، والأجناس، والعصور، والطوائف، وقبل كل شيء، إلى الإنسان الحيواني ككل، إلى الإنسانية. هذه هي الأخلاق التي انتقم منها نيتشه نفسه بسبب إهانات نيتشه؛ الآن كان الأمر مخالفاً للحياة والطبيعة؛ وهي الآن ليست "حماقة"، بل حكمة بحسب الطبيعة وضرورية للحياة. لأن العيش، كما يخبرنا زرادشت، "هو أن تطيع وأن تأمر"، أن تطيع أولاً حتى تكون قادراً على إصدار الأوامر، ليس فقط للآخرين، بل لنفسك أيضاً.

ويختتم نيتشه بقوله: إن كل النزعة الطبيعية في الأخلاق، أي كل الأخلاق السليمة، تهيمن عليها غريزة الحياة؛ الآن، أي وصية من وصايا الحياة مهما كانت يتم تنفيذها بقانون محدد من الأوامر والنواهي؛ وبذلك تتم إزالة أي عقبة أو عداوة على الإطلاق في المجال الحيوي. إن الأخلاق المضادة للطبيعة، أي كل الأخلاق التي تم

تدريسها وتبجيلها والتبشير بها حتى الآن، موجهة، على العكس من ذلك، ضد الغرائز الحيوية على وجه التحديد؛ إنها إدانة سرية أحياناً، وصاخبة ووقحة أحياناً لهذه الغرائز نفسها... القديس الذي يُرضي الله هو المُخصي المثالي. تنتهي الحياة حيث يبدأ ملكوت الله"[٣٢]. وهكذا يخلط نيتشه بطريقة سفسطائية بين كل الأخلاق والزهد المعادي للطبيعة والحياة، والذي يمنع الأكل والشرب، وإنجاب الأطفال، والحب، والابتهاج، والعيش. ومن ثم فمن السهل لعن الأخلاق باعتبارها إنكاراً للحياة. لكنه هو نفسه، في نفس الصفحة، أدرك أن كل وصية من وصايا الحياة والغرائز الحيوية مليئة بمدفع حازم من الأوامر والدفاعات؛ في حين، هذه الأوامر وهذه المحظورات هي أخلاق الحياة؛ ثمة دائماً شيء أخلاقي! من الضروري دائماً تحديد قمة الحياة، أي، بشكل أساسي، "الأمثل" للوجود والإرادة. ها نحن نعود إلى المشاكل الأخلاقية الأبدية، التي أطرى نيتشه نفسه للتو بعد أن أبادها إلى الأبد.

ومن تناقض إلى تناقض، يواصل فيلسوفنا طريقه. في بعض الأحيان، في ضوء الحياة الوهمية والفائضة، يريد منا أن نتخلى عن كل غرائزنا، وعن كل الطبيعة الاستوائية التي تتطلب التوسع؛ وفي أحيان أخرى يريد منا أن نكبح جماح غرائزنا. ويقول في الواقع (وفقاً للحكمة القديمة): "إن هذه الغرائز تناقض بعضها البعض، وتعيق بعضها البعض، وتدمر بعضها البعض بشكل متبادل. إن سبب التعليم يتطلب، تحت قيود حديدية، أن يكون أحد أنظمة الغرائز هذه على الأقل مشلولاً، للسماح لنظام آخر بإظهار قوته، ليصبح قوياً، ويصبح سيداً. ويحدث العكس، حيث يتم إثارة المطالبة بالاستقلال،

32- *Crépuscule des idoles :la morale en tant que manifestation contre la nature.*

وحرية التمية، والتخلي عنها، بأقصى درجات الحرارة على وجه التحديد من قبل أولئك الذين لن يكون لديهم أي قيود صارمة بما فيه الكفاية". هكذا يتحدث نيتشه في فقرة "شفق الأصنام" التي يسميها، بشكل ساخر فيما يتعلق بمقطع من قصيدة "المرسيلياز": الحرية، الحرية لا تعتز بها! هذا الاستبدادي يريد الحرية لنفسه ولأقرانه فقط، وليس للآخرين؛ الحرية للسادة، والعبودية للعبيد. زاهد للشعب فهو عدو كل العوائق أمام الأرستقراطيين. ما هو إذن الختم الذي يضعه السادة على جباههم، وكيف سيمنعون العبيد من محاولة أن يصبحوا أسياداً بدورهم؟

بالنسبة للاشتراكية والفوضوية، يعارض نيتشه الاختيار الأرستقراطي للأقوى، والذي سيؤدي في النهاية إلى جعلهم الأكثر ذكاءً. فهو يعترف مع فلوبير، ومع رينان، ومع جميع الرومانسيين تقريباً، بأن الشعب ليس سوى منعطف تسلكه الطبيعة لتنتج عشرات من الرجال العظماء، بما فيهم هو نفسه؛ ويفترض أنه: "يجب على الإنسانية أن تعمل دائماً على إنتاج أفراد يتمتعون بالعبقرية؛ تلك هي مهمتها، وليس لها غيرها". فليكن. دعونا نعترف بذلك، على الرغم من التناقض الموجود في القول بأن الإنسانية خلقت من أجل رينان وفلوبير ونيتشه، في حين أن الرجال العظماء بدورهم لا يملكون قيمة إلا من خلال الخدمات التي يمكنهم تقديمها للإنسانية من خلال الارتقاء بها إلى مستوى فوق إنساني. ومع ذلك يبقى سؤال: كيف ستتمكن من إخراج رجالك العظماء؟ يجيب نيتشه: سوف نحرص من الآن فصاعداً على ألا نترك الأمر للصدفة وحدها لإنتاج الفرد العبقري، السيد الحقيقي، وسط كتلة من الرداءة والعبيد؛ سيسعى الناس، عن علم، إلى خلق جنس من الأبطال عن طريق الاختيار، وعن طريق التعليم المناسب. يقول

نيتشه: "من الممكن، عن طريق الاختراعات السعيدة، الحصول على أنواع من الرجال العظماء مختلفة تماماً وأقوى من أولئك الذين شكلتهم الظروف العرضية حتى الآن. إن التربية العقلانية للرجل المتفوق هي آفاق واعدة. ومن ثم، سيتم استبدال الانتقاء الاصطناعي بالانتقاء الطبيعي، وهو أمر ليس مؤكداً بما فيه الكفاية. أما بالنسبة لوسائل إنتاج رجال مصطنعين يستحقون أن يكونوا سادة، فإن نيتشه يتركها غير محددة، وذلك لسبب وجيه!

نحن نشك في أنه يمكن لأي شخص، بأي وسيلة، إنجاب الأبطال مثلما يحصل على سلالات متفوقة من الخيول. وبالتالي، لا يضمن لنا الانتقاء الطبيعي ولا الانتقاء الاصطناعي أننا سنحظى بالرجال العظماء المقدر لهم أن يصبحوا أسيادنا. وإذا امتلكناها، فستكون هناك حاجة دائماً إلى علامات للاعتراف بتفوقها. إذا تركنا لهم فرض أنفسها، فلا شيء يخبرنا أن العظماء الزائفين لن ينجحوا في أن يكونوا الأقوى أو الأكثر مكراً. أليس من الأسهل إذن الحفاظ على قواعد العدالة العامة والقانون العام، مع ترك السلطة للتفوقات لكي تنشأ وتقبل بحرية؟ لكن لا؛ يريد نيتشه "أسياداً" حقيقيين، و"عبيداً" في الوقت نفسه. ويقول إن إنتاج أي طبقة أرستقراطية يتطلب جيشاً من العبيد. "العبودية هي أحد الشروط الأساسية للثقافة الرفيعة: ويجب القول إن هذه حقيقة لم تعد تترك مجالاً لأي وهم حول القيمة المطلقة للوجود. هذا هو النسر الذي يقضم كبد بروميثيوس المعاصر، بطل الحضارة. إن بؤس الرجال الذين يعانون من النمو المؤلم يجب أن يتزايد أكثر حتى يتمكن عدد قليل من العباقرة الأولمبيين من إنتاج أعمال فنية عظيمة. إن التقدم الثقافي ليس له تأثير في تخفيف المتواضعين: فالعمال في القرن التاسع عشر ليسوا أكثر سعادة من العبيد في زمن بريكليس. وهكذا يعيد نيتشه، دون

انتقادها، إنتاج كل الأفكار الحالية منذ شليغل وهيغل وريتان. لكن المثال الذي قدمه لعمالنا مقارنة بالعبيد القدامى هو أفضل دحض لأطروحته؛ اقرأ عند المؤلفين اليونانيين الطريقة التي عامل بها الإسبرطيون، بما في ذلك الأثينيون أنفسهم، بما في ذلك الرومان، عبيدهم، وسترى ما قيمة التناقض الذي يحافظ على التكافؤ الأبدي للظروف البشرية! هل سيزعم نيتشه أيضاً أن المجاعات كثيرة ومميتة اليوم كما كانت في العصور الوسطى؟ ومهما قيل، فإن القنانة كانت بمثابة تخفيف للعبودية، وكان العمل المأجور بمثابة تخفيف للعبودية، ونحن اليوم نميل إلى قمع العمل المأجور نفسه لصالح التعاون والاشتراك. وهذا يعني أننا نميل إلى مزيد من العدالة بين البشر وإلى قدر أكبر من المساواة في الحقوق، الأمر الذي سيؤدي إلى مساواة أكبر في التمتع. كان بإمكان أي معاصر لكارل ماركس أن يتصور، حول هذا الموضوع، أفكاراً أقل تخلفاً قليلاً من تلك التي أغوت نيتشه.

دائماً، كما يقول نيتشه، ستكون هناك تبعية اجتماعية للضعفاء وللأقوياء، لأنه سيكون هناك دائماً تنوع بينهم، وسيكون هناك دائماً الكثير من "إرادات السلطة المتميزة وغير القابلة للاختزال".- لكن يمكن الإجابة بأن التنوع ليس بالضرورة ولن يكون دائماً عداءً! بل إنها وسيلة لتوزيع الخيرات والكنوز الاجتماعية، ومنع جميع الناس من الرغبة في نفس الشيء والتنافس عليه بالقوة. يتحدث نيتشه دائماً كما لو أن النقطة الوحيدة الممكنة لتطبيق القوة المتوسعة هي "الناس الآخرون"، في حين أنه أيضاً "الأشياء" وفوق كل شيء "أنفسنا". لدينا الوسائل لممارسة قوتنا في داخلنا؛ علينا أن نناضل ضد الميول التي، مهما كان ادعاء نيتشه (ما لم يقل العكس بعد ذلك)، تحتاج إلى تقييدها أحياناً، وتوجيهها وأمرها في أحيان أخرى.

لقد رأينا هذا منذ زمن طويل لكي ننتصر على أنفسنا، ونيتشه نفسه يرى فيه أجمل الانتصارات. لذلك، فليطمئن النيتشويون، أن البشر يمكن أن يكونوا في سلام مع بعضهم البعض، وسيظل لديهم ما يلزم "للنضال"، إما مع الطبيعة أو مع أنفسهم. إن الحرب الداخلية للفكرة ضد العاطفة تحل محل الحرب الخارجية بشكل متزايد. أليس لدى أنصار الصراع العالمي ما يرضون به أكثر من صراع القوى الوحشية؟

ربما استطاع نيتشه تحويل كل القيم وأكد أنه، في علاقات الناس فيما بينهم، من الضروري أن نأخذ "ميول الكراهية والحسد والجشع وروح السيطرة على الميول الأساسية للحياة، من أجل شيء ما، فالاقتصاد العام للحياة، يجب أن يوجد بعمق، وبشكل أساسي"[33]. وهو بذلك يخلط بين شيئين يفرقان بين كل طالب فلسفة. الميول الطبيعية والأهواء التي تدفعهم إلى الإفراط.- ما هو "الطموح" المفيد وغير القابل للتدمير، كما يتساءل أنصار نيتشه، إن لم يكن شكلاً من أشكال إرادة السلطة والنضال؟- إرادة القوة، سواء كانت؛ من النضال، يجب أن نتفق. "أليس الطموح يفترض إزالة العائق ومحاربة الخصم؟ عقبة، نعم؛ خصم، ليس دائماً، ولا بالضرورة. إن الطموح إلى أن تكون شاعراً عظيماً، أو فيلسوفاً عظيماً، أو عالماً عظيماً، أو مجرد رجل عادل ومفيد للجميع، لا يعني إبادة الخصوم. تطور المجتمعات، يضيف المعجبون بنيتشه،- سيميل، بالانتي[34]، ولا تظهر لنا بأي حال من الأحوال التقليل من الأنانية والعداء في العلاقات الإنسانية؛- بل على العكس من ذلك، يبدو أن سمة عصرنا هي "التكثيف" الشديد للأنانيات الجماعية، وأنانية الأجناس، والطبقات،

---

33 - Nietzsche, *Par-delà le bien et le mal*, § 23.
34 - *Précis de sociologie*, Paris, Alcan, 1901.

والأحزاب، والشركات، وما إلى ذلك، والتي هي إرادات جماعية للسلطة. "دعونا نتأمل في المثال الذي قدمته الأنانية الإنجليزية في حرب جنوب أفريقيا. ونحن نرى أن أنانية الجماعات لم تكن قط مسلحة أكثر مما هي عليه اليوم. ومع الاعتراف بأن الوعي الفردي قد تم صقله في سياق التطور وأصبح في متناول مشاعر أكثر حساسية وإنسانية من مشاعر الإنسانية البدائية، فإن الوعي الاجتماعي يظل أنانياً وطموحاً وجشعاً في نفس الوقت. والقمعية من أي وقت مضى"[35]. من الممكن، كما سنجيب، أن الأنانية الجماعية تتزايد في عصرنا، وحتى هذا أمر قابل للنقاش. فهل كانت الأنانية الإنجليزية القديمة تجاه إيرلندا أقل من الأنانية الحالية فيما يتعلق بالترانسفال! إن أنانية الطبقات والأحزاب والشركات لم تعد تؤدي في كثير من الأحيان إلى الكفاح المسلح كما كان الحال في السابق. إذا كانت الولايات لا تزال تقاتل بعضها البعض، فإن المقاطعات لم تعد تتقاتل. لذلك هناك تقدم.

ويرى النيتشويون أنه في حين أن التضامن يزداد بالفعل داخل كل مجموعة، فإن التنافس والعداء يزيدان من المساواة من مجموعة إلى أخرى.- التنافس، أيضاً؛ العداء، ليس دائماً. ومع ذلك، فإن التنافس لا يحدث إلا على الأشياء التي تلتقي فيها ادعاءات متشابهة، لا مختلفة. ومن العدل أيضاً أن نقول، مع نيتشه وأتباعه، إن حالة التنافس بين المجموعات مواتية لحرية الفرد: إذ يجد أمامه عدة مجموعات متناضلة، فإنه يجد في إحدى هذه المجموعات الاحتجاج على الأخرى. وبما أن التأثيرات الجماعية غالباً ما تكون قمعية للفرد، فإن الأخير لديه مصلحة في رؤية المجموعات تدخل في صراع:

35 - M. G. Palante, *Précis de sociologie*, p. 123.

وبالتالي يمكنه السيطرة عليها أو على الأقل الهروب منها. "يمكن تحويل الصيغة القديمة Divide ut liberes إلى هذه الصيغة: {lang|lạ|Divide ut liber sis}[36]". نحن نتفق بسهولة على أن تعدد وتنافس الدوائر الاجتماعية المختلفة التي يمكن أن ينتمي إليها الفرد هو، بالنسبة للفرد نفسه، وسيلة للتحرر. فالعامل الذي كانت شركته في السابق تستولي عليه بالكامل، لم يكن يتمتع بحرية الإنسان المعاصر، الذي يستطيع أن ينتمي إلى عشرين شركة أو جمعية مختلفة من دون أن يستوعبها أي منها. لكن، إذا كان هذا التنوع وتوازن القوى هذا مفيداً، فهل يجب علينا أن نستنتج، مع نيتشه، أن عنصر النضال كما يسمى بالمعنى الدقيق للكلمة، وخاصة النضال العنيف إلى حد ما، هو في حد ذاته ضروري إلى الأبد؟ ألا يتضاءل هذا العنصر ليحل العداء محل المنافسة، والحرب محل المنافسة؟ إن العدالة والحقوق المتساوية ليستا "قيم فناء"، بل هي الشروط الحقيقية للسلطة والتقدم.

لا يستطيع نيتشه أن يغفر للمسيحية، والأخلاق الحديثة، والديمقراطية الحديثة، معارضتها للنضال. إن الرغبة في الوحدة والانسجام، كما يقول، والتي تتمثل في "الامتناع المتبادل عن الصدامات والعنف والاستغلال، وتنسيق إرادة الفرد مع إرادة الآخرين، لا يمكن أن تكون المبدأ الأساسي للمجتمع، ولا قانونه الحقيقي. إذا قمنا بتغييره إلى مبدأ، فإنه يظهر على الفور حقيقته: إرادة نفي الحياة، مبدأ الانحلال والانحدار. ويكرر نيتشه أن الحياة نفسها هي "في الأساس استيلاء، وعدوان، وإخضاع للغريب والأضعف، واضطهاد، وقسوة، وفرض أشكالها الخاصة، ودمجها،

[36] - G. Palante, *Précis de sociologie*, p. 124.

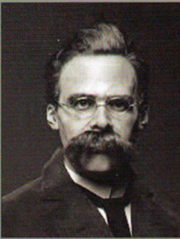
وعلى الأقل، في الحالة الأكثر اعتدالاً، تشغيلها". كل ما يتم القيام به في العالم العضوي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأفكار الإخضاع والسيطرة[٣٧]. وينطبق الشيء نفسه على العالم الاجتماعي.- ولكننا لا نرى، سنجيب، في المملكة العضوية، أن التنفس سيطرة، وأن الحركة العفوية للطفل الذي يلعب هي سيطرة. كما أننا لا نرى أن هذا الجيل هو استغلال. يجعل نيتشه من الجوع المحرك الوحيد وينسى الوجه الآخر للحياة الجسدية، التوالد، الحب. وهذا يمحو بجرة قلم، بالإضافة إلى نصف الحياة الجسدية، كل الحياة الفكرية (التفكير لا يهدم)، وكل الحياة الأخلاقية والاجتماعية (الاتحاد مع الآخرين لا يهدم).

وهكذا ينكشف لنا الخطأ الأساسي في نظام نيتشه: أعني المفهوم الأناني المحض للحياة، ليس فقط للحياة الجسدية، بل حتى للحياة الفكرية والأخلاقية. في أحد المشاريع العديدة التي خطرت على ذهن نيتشه المحترق، أراد أن يخصص عشر سنوات من حياته لدراسة التاريخ الطبيعي لتأكيد نظامه الأخلاقي والاجتماعي. لماذا لم يفعل ذلك؟ وبعد بضعة أشهر فقط من الدراسة الجادة، كان سيشهد سقوط هذا النظام أمام الواقع. ولكن بالنسبة لعلم الأحياء، كما هو الحال بالنسبة لعلم الاجتماع، فقد ظل في فترة الجهل، ذلك الجهل السعيد الذي يصنع العرافات والعرافين- وحتى الشعراء.

---

37 - *Généalogie de la morale*, § 12.

الفهرس



ألفريد فوييه

يتضمن هذا الكتاب- الذي نترجمه إلى العربية- دراستين كان الفيلسوف الفرنسي فوييه قد كتبهما عن نيتشه، وهو يعتبر من أوائل النتشويين في فرنسا، الأول حول ديانة نتيشه وقد نشره في "مجلة العالمين"، العدد الأول، الإصدار الخامس، العام ١٩٠١، أما الثاني فحول أفكار الفيلسوف الألماني الاجتماعية وقد نشره فوييه أيضاً في المجلة عينها، الجزء التاسع من الإصدار الخامس، العام ١٩٠٢، وفيهما يقدم تأويلاً خاصاً للفيلسوف الألماني، أثار يومها الكثير من الجدل. ربما يجد البعض أن هذا التأويل قد تخطاه الزمن، (ليس رأيي في أي حال)، لكنه بالتأكيد يقع في قلب تاريخ الفلسفة والأفكار، وربما لذلك يُعاد اكتشاف فوييه حالياً في فرنسا، بعد أن طواه النسيان لفترة طويلة، إذ تعاد طباعة أعماله وتقام المؤتمرات حول فلسفته.

9789933699680

دار دلمون الجديدة